

محمد عناني

زوجة أيوب

قصة شعبية

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://twitter.com/SourAlAzbakya>



منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://twitter.com/SourAlAzbakya>

<https://www.facebook.com/books4all.net>

محمد عناني

زوجة أيوب

قصة شعبية

القاهرة ٢٠٠٤



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٤

الإخراج الفنى والفلاف

أميمة على أحمد

تصدير

هذه قصة شعرية أو قصيدة قصصية ، تتناول حادثة حقيقية وقعت في مدينة رشيد ، في أربعينيات القرن العشرين ، وشهدت بنفسى طرفاً منها ، وإن كنت صغيراً ، وهى تقوم - مثل حكاية معزة - على الراوى الذى يحكى القصة إلى حشد فى بلده ، كما يروى عن راوية آخر أصغر سناً ، ويلتزم الراوى الهرم بتقاليد البحر الشعرى الذى اختاره (ولو لجأ إلى الشطرة الخماسية) ، بخلاف الراوى الصغير الذى يكثّر من زيادة عدد التفعيلات فى البيت الواحد ، وقد تتفاوت فى روايته أطوال

الأبيات حتى فى الفقرة الواحدة ، ولكنهما يلتزمان جميعاً بالوزن والقافية الواحدة فى كل فقرة .

والقصة مكتوبة بالفصحى المعاصرة ، وفى فقرات طول كل منهما ١٦ سطراً ، مثل **حكاية معزة** ، وتتكون مثل تلك القصة من أربعة أناشيد واستهلال وخاتمة ، وأما اختياري للأصل الواقعي فقد تأثر بقراعتي **سِفْرُ أَيُوب** فى الكتاب المقدس ، وما عرفته من التراث الشعبى عن 'صبر أيوب' والقصص المروية (والمكتوبة) عنه ، دون التزام بما جاء فى التراث الدينى (المسيحى أو الإسلامى) عنه أو فى الروايات الشعبية ، فالمصدر الأول هو الحادثة الواقعية ، وإن كنت أضفيت عليها ما اقتضته المعالجة الشعرية من 'ألوان الخيال' (كما يقول الشعراء الرومانسيون الانجليز ، فابتعدت بعض الشيء عن الأصل الواقعي ، مثل تغيير اسم زوجة أيوب الأولى إلى جميلة والاستعانة بالراويين ، وإضافة ما يحدث للراوى الصغير فى ثنايا القصة .

والشعر القصصى أو القصص الشعرى نوع أدبى جديد نسبياً فى الأدب العربى ، إذ لم يشعْ عند القدماء ، وإن كان

المحدثون قد أحيوه ، وله صورته المتعددة فى الأدب الشعبى (المكتوب بالعاميات المحلية) ولكنه عميق الجذور فى الآداب الأوروبية ، منذ الملاحم الكلاسيكية وحتى القرن التاسع عشر ، ولذلك فلا أريد أن أخوض فى أى قضية نقدية ، فما هذا إلا تصدير مقتضب ، ولا أريد أن أثقل على القارئ بمعايير القصص الشعرية فى الآداب الأوروبية وكيف تختلف عن معايير الشعر الغنائى (بالمعنى العلمى المحدد الذى يقابل مصطلح Lyrical الانجليزى) ومعايير القصة القصيرة الحديثة التى تكتب نثراً ، فلهذه القضايا كتبها المتخصصة ، بل سأكتفى بأن أقول إننى أكتب حكاية منظومة ومقفساء ، بمنهج الشعراء الرومانسيين الانجليز ، وفى الشكل محاكاة ، وفى الجوهر قصٌ شعريٌّ لحادثة وقعت ورأيت فيها ما يصلح للمعالجة الشعرية وحسب .

محمد عناني

القاهرة - ٢٠٠٤

الاسئلة

(١)

أَعُودُ إِلَيْكُمْ رِفَاقَ الْمَسَاءِ
بَشَعْرٍ قَلِيلٍ وَفَنٍّ أَقَلٍّ
وَكُنْتُمْ تَطْلِبْتُمْ نَشِيدًا جَدِيدًا
بِهِ وَابِلُ الْفَرْحِ أَوْ قَطْرُ طَلٍّ
وَلَكِنْ كُلُّ الذِّى فِي الْحَنَائَا
بَقَايَا شَبَابٍ هَزِيلٍ وَمَحَلٍّ
فَرَبَّةٍ شَعْرِي الَّتِي اعْتَدْتُهَا
مَضَتْ لِسَوَايَ إِذْ الشَّيْبُ حَلَّ
وَشَأْنُ الْغَوَانِي عُرُوفٌ وَصَدٌّ
إِذَا لَاحَ فِي الرَّأْسِ شَيْبٌ يُطَلِّ
وَلَكِنْ قَلْبِي شَدِيدُ الْمِرَاسِ
وَفِي النَّفْسِ دَفْعُ الْهَوَى لَا يَكَلِّ

ودَفَّقُ غرامٍ بكلِّ جميلٍ
ولو تاه عن كلِّ عينٍ وضلَّ
فلم أكرثُ لِعوادي الزمانِ
ولم أكرثُ لبلاءِ أجلِّ

(٢)

عجبتُ لأولى ظلالِ النذيرِ
فهل يطمسُ الشيبُ نورَ الأملِ؟
تولَّى الزمانُ وجأفى المكانُ
ولكنَّ قلبى فستى لم يزلْ
فإن أسدلاً فوقه ساتراً
أبى الشعرُ للعمرِ أن ينسدلْ
وعادَ إلى بارقاتِ الحياةِ
لنسجٍ من الوشْيِ لم يكتملْ

فإنَّ تَكُ رِبَةً شَعْرَى مَضَتْ
فإنَّى لِهَجْرَانِهَا مُحْتَمِلُ
وَقَلْبَى اسْتِطَابَ مِرَاقَى الْخِيَالِ
وَحَلَّ بِأَقْطَارِهَا وَارْتَحَلَ
هَدَانَى لِشَيْطَانِ شَعْرِ مَرِيدِ
يَخَادَعُ فِى دَوَاعِى الْأَجَلِ
يَعْضُ بِنَابِيهِ عَضًا غَرِيبًا
لَهُ لَذَّةٌ مِثْلُ بَعْضِ الْقُبُلِ !

(٣)

وَشَيْطَانُ شَعْرِى الْمَرِيدُ الْجَدِيدُ
صَغِيرٌ طَمُوحٌ وَيَهْوَى الْفِتْنُ
يَرِيدُ ارْتِيَادَ الْمَحَالِ الْبَعِيدِ
لِيَنْسَجَ مِنْ وَهْمِهِ كُلِّ فَنٍّ

فكيف أُعيرُ إليه جناحًا
قوادمه قد برأها الزمن ؟
ومن أين أتى له بالجديدِ
وكلُّ الذي فى يدي مُرتَهَنُ ؟
أطوفُ بأرضِ الصِّبَا باحثًا
عن الفرَحِ مثلِ هَـصُورٍ وهَنُ
فلست أُلَاقِي سوى الصادحاتِ
بأنغامِ عُمُرٍ مضى بالمِحَنُ
وقد أجدُ الفرَحَ فى بعضِ رُكْنٍ
خبىءٍ بعيدٍ به قد كَمَنُ
فَأَنْبِشُهُ أَسْتَعِيدُ الشَّبَابَ
ومرأى الروائعِ فوقَ القُنَنُ

(٤)

ولكنّ قصة هذا المساءِ
مزيجٌ من الواقعِ المرّ فينا
شرابٌ غريبٌ به قسوةُ
ولذعةُ أخلاطهِ لنّ تليّنا
ولكنّ رحمةً ربّك عندي
تجيءُ لكلّ صبورٍ يقينا
وما أنا إلا امرؤٌ قد صبرتُ
فأكرمني الله دُنْيَا ودينَا
وخصني الله بالشعرِ كَيْمَا
أحضَّ عباداً له مُتَّقِينَا
ولستُ أقولُ بَأْنِي غَنِيٌّ
بمالٍ أتى يَهْرُ الناظرينا

ولكنْ لَدَى قَنَاعَةٍ نَفْسٍ
تُحِيلُ الْكَفَافَ طَعَامًا سَمِينًا
وعندى من الحب نبعٌ عميقٌ
يُفَجِّرُ فِي الْقَفْرِ مَاءً مَعِينًا

(٥)

وأبدأ يا صاحبُ هذِي الْقُصَيْصَةِ
بشرحٍ لمقصدِ شعري الجديدِ
فإني نزلتُ ببحرٍ تهبُّ عليه الرياحُ
فيعلو به الموجُ حتى يَمِيدُ !
ولم أستطعْ كبَحِّ رِيحٍ شرودِ
لأرسو على شطآننا في رشيدِ
ولم أكُ أدري بأنَّ الرياحَ
تَهْبُ كعفريتِ جنٍّ مريدِ

فأطلقتُ للشعرِ الحانَهُ
تقاذفُها الموجُ أنى يريدُ
فإن يهدأُ الموجُ تدنو السطورُ
إلى ما ألفتُم بكل قصيد
وإن ثارَ طالتُ سطورى وشطَّتْ
لتبعدَ عن لحنِ كُلِّ نشيد
وها أنذا قد طويتُ الشراعَ أرومُ النجاةِ
من العاصفِ المُستبِدِّ العنيدِ !

النشيد الأول

(٦)

وفارسُ قِصَّتِنَا يَا صِحَابُ امْرَأَهُ
سَأَذْكُرُهَا مَا ذَكَرْتُ النِّسَاءَ
فَلَمْ تَكُ تَزْهَوِ كَمَا يَزْدَهِيْنَ
وَلَمْ يَكُ فِيهَا بَصِيصٌ رُوءً
أَتَتْ لِلْحَيَاةِ بَغِيرَ رِضَاءِ أَبِيهَا وَلَا أُمِّهَا
وَلَمْ تَلْقَ مِنْ أَى فَرْدٍ رِضَاءً !
وَكَانَتْ طَرِيدَةً أَتْرَابِهَا فِي الصَّبَاحِ
وَتَقْضَى النَّهَارَ بِأَسْرِ الشَّقَاءِ
تُحْسُ نُزُوعًا دَفِينًا بِهَا لِلْبَكَاءِ
وَلَكِنَّهَا حِينَ يَأْتِي الْمَسَاءُ
تُخَبُّ عَلَى مَتْنِ أَحْلَامِهَا فِي هَنَاءٍ
فَتَرْتَادُ كُلَّ رَفِيعٍ وَنَاءٍ

تُحَطِّمُ كُلَّ قِيودِ الزَّمانِ
وتسُمُو إلى عالمٍ من بهاءٍ
وتخلقُ كونًا لها وحدها
به من أطايبِهِ ما تشاءُ !

(٧)

وكانت نظيمَةً (هذا اسمُها) من هواةِ الغناءِ
وتهوى التَّرنُّمَ في كلِّ آنٍ
تحاكى لُحُونَ المؤذِّنِ وَقْتَ الأذانِ
وفى هداةِ اللَّيْلِ أُغْنِيَةَ الكُرَّوانِ
وكان أبوها يُفَضِّلُ إخفاءَ حُبِّ أَصِيلِ
لِوَقْعِ الغناءِ وسِحْرِ اللِّسانِ
ويُصْغِي بِحُجْرَتِهِ صامتًا للصَّغيرةِ
في دَهَشٍ وعَظِيمِ امتنانٍ

وكيف له أن يلومَ الفتاةَ التي
تُشيعُ الحبورَ بكل مكانٍ
خُصوصاً إذا عادَ يوماً حزيناً
فصافحتُ الأذنَ ألحانُ جانٍ !
لتغسلَ كلَّ همومِ الحياةِ
وتمحو من النفسِ جورَ الزَّمانِ
وما كان يحلمُ أن تستجيبَ السُّنُونُ
فيحكى بالحنانِها الخافِقانِ !

(٨)

وما إن تخطَّتْ نظيمةُ طورَ الطفولةِ حتَّى
أُصيبَ أبوها بداءٍ عُضالٍ
وكان من العاملين بِفَتْلِ الحبالِ
وفى مصنعٍ عندَ سفحِ التَّلالِ

أَجِيرًا يُدَبِّرُ قُوتَ الصِّغَارِ
وَمَنْ ذَا يُقَدِّرُ هَمَّ الْعِيَالِ !
وَأَسْرَعَتْ أُمُّ تَدْعُو الْجَمِيعَ
إِلَى مَا يُجَنَّبُ ذُلُّ السُّؤَالِ
فَأَمَّا الذُّكُورُ فَقَدْ شَارَكُوا فِي الْكِفَاحِ
بِأَجْرِ زَهِيدٍ - وَلَيْسَ يُعَدُّ بِمَالٍ !
وَأَمَّا الْبَنَاتُ فَكُنَّ يُجِدْنَ الْحَيَاكَةَ فِي دَارِهِنَّ
وَفِي مَأْمَنِ مِنْ عُيُونِ الرِّجَالِ !
وَسَاعَتْ بِوَالِدِهِمْ حَالُهُ وَادْلَهَمَتْ
فَبَاتُوا يَخَافُونَ سُوءَ الْمَالِ
وَكَانَتْ نَظِيمَةٌ تَتْلُو عَلَى رَأْسِهِ
مِنْ الْآيِ مَا ذَا عَصِيَّتًا بِكُلِّ مَجَالٍ !

(٩)

وأشفقَ أهلُ رشيدَ على أهلِ بيتِ المريضِ
وقد باتَ في برحه يُحتَضِرُ
وراعَ الجميعَ رنينُ بصوتِ نظيمةٍ يسمو بهِ
فوقَ أصواتِ كُلِّ البَشَرِ
وزادتُ زياراتُ بعضِ الكبارِ
ليستمتعوا برنينِ نَدْرٍ !
وما لبثَ الشيخُ أنَ فاضَ روحاً
فغامتُ بعينِ الجميعِ الصُّورُ
وقالوا نظيمةٌ ماتَ أبوها - فتاةُ التلاوةِ ذاتِ الطَّلَاوةِ ؟
يا عجباً لصروفِ القَدَرِ !
ومرَّتْ ليالىِ الحدادِ كغيمٍ سَفَّتَهُ الرياحُ
فولَّى وغابَ بلالُ المَطَرِ

ولكن ديمة حُزنٍ نظيمة هاطلةٌ في الجفونِ
وتسقى الخدودَ عجيبَ الدررِ !
ويكسُو التأسى غناء الفتاةِ
فيغدو كصوتِ حمامٍ هدرٍ !

(١٠)

وكنْتُ - رفاق المساءِ - صغيرا
حريصاً على الدرسِ حرصاً شديدا
وكنْتُ - كما تذكرون - فقيرا
وإن كان قلبي حكيماً رشيدا
أرى الشعرَ مالاً وكُنْزَ النُّهى
غدوتُ به مُؤمناً وسعيدا
أرددُ ما قاله الأولونَ
وأضحى لدى غراماً فريدا

وكنْتُ إذا اللَّيْلُ حلَّ انْتَنَيْتُ
لأَقْرَأَ شَعَرَ الْقُدَامَى وَحِيداً
وَأُحْيِيهِ فِي خَاطِرِي مُسْتَعِيداً
زَمَاناً غَدَاً طَارِفاً وتَلِيداً
وَأَمَّا الحَوَادِثُ حَوْلِي فَكَانَتْ
صَدَى بَارِحٍ وَقَدِيماً جَدِيداً
تَلَاشَتْ حُدُودُ اللَّيَالَى فَكَانَتْ
كَنَهْرٍ يَسِيلُ دَوَاماً مَدِيداً !

(١١)

وكان لدينا غلامٌ عجيبٌ
يُرَدِّدُ مَا لَدَّ مِنْ أَغْنِيَاتٍ
نَشِيطاً مَجْداً وَعَذْبَ الْحَدِيثِ
حَرِيصاً عَلَى الصَّدَقِ جَمَّ الثَّبَاتِ

ويحكى الحكاياتِ عَمَّنْ تولى
من الأولياءِ ذوى المعجزاتِ
يُرَدُّ أشعارهم والوصايا
وما قد رَوَّته عيونُ الثُّقاتِ
وكنتُ أحرارُ لسحرِ اللُّحونِ
كنبعٍ من النفسِ صافٍ فُراتُ
وكنا نلاقى أصحابَ جميعاً
بِظَهْرِ المدينةِ فى الأمسياتِ
فَرَحْتُ أُسأَلُ ذاكَ الغلامَ
عن السَّرِّ فى هذه السانحاتِ
فقال بدهشةٍ من يتأسَّى
لِجَهْلِي : "من عند ست البنات !"

وَأَدْرَكْتُ أَنَّ الْفِتَاةَ نَظِيمَةً
مَصْدَرُ وَحْيِ الْغَلَامِ الصَّغِيرِ
فَتَابَعْتُ أَخْبَارَهَا مِنْ بَعِيدٍ
وَمَا كُنْتُ أَنْئِذٍ بِالْخَبِيرِ
وَكُلُّ الَّذِي جَاعَى عِنْدَهَا
نُتَارٌ مِنَ الْقَوْلِ غَيْرُ كَثِيرِ
وَمُجْمَلُهُ أَنَّ تِلْكَ الْفِتَاةَ
تَخَافُ مِنَ الدَّهْرِ سَوْءَ الْمَصِيرِ
فَلَيْسَتْ بِذَاتِ جَمَالٍ وَحُسْنِ
وَلَيْسَتْ بِذَاتِ ثَرَاءٍ وَفَيْرِ
وَكُنَّا نَرَى بَعْضَ إِخْوَتِهَا فِي

رَشِيدَ بِمَظْهَرِ عُدْمِ مَرِيرٍ
يَعَانُونَ مَا يَعْرِفُ الْأَغْنِيَاءُ
وَلَيْسَ يَعَانِيهِ إِلَّا الْفَقِيرُ !
وَكَانَتْ تَخَطَّتْ سَنِينَ الزَّوْجِ
وَلَمْ يَسْتَجِبْ لِلدُّعَاءِ الْقَدِيرُ !

النشيد الثاني

(١٣)

تركتُ رشيدَ - كما تذكرون -
بُعِيدَ الطفولةِ للقاهرة
وكنتُ كمفتونٍ شعرٍ فقيرٍ
أعبُ مشاهدَها الساحرة
أرى في المباني وفي الطُّرقاتِ
مآثرَ فاتنةٍ أسيرة
وأحيا حياتي بأروقةِ النُّورِ
وسَطَ رَبِّا الأزهرِ البزَّاهرة
والتمسُ العلمَ كُلَّ صَبَاحٍ
وتحتَ قناديلها السَّاهرة
أرومُ شبابِ الزَّمانِ القديمِ
وأنشدُ أيامَهُ الغابرة

أرى فيه معنى الحياة إذا ما
أُتيحَ انطلاقُ الرؤى الغامرة
فعدتُ إلى الشعرِ والوحي في
كلِّ ركنٍ بقاهرتي الشاعرة !

(١٤)

نسينا نظيمة يا صحبُ سهواً
وذلك في السردِ عيبٌ وهفوه
ولكننى الآن راوِ عجزُ
يحاولُ أن يغفرَ الناسُ سهوه
وأما الحديثُ عن الآخرين
فذنّبُ وأرجو من الله عفوهُ
كعثرةٍ أقدامنا حين نكبُو
وننهضُ ناجينَ من كلِّ كبوه

وما الذكرياتُ سوى تيهٍ كُلِّ
عجوزٍ وأعْمَقِ جُبٍّ وهوهِ
هى الوهمُ يرسمُ فى كُلِّ حينٍ
من القفرِ خصبًا وعِزًّا وثروهِ
يُشَتَّتُ فى الذهنِ أَلحَانَهُ
وينبؤُ بأفكاره كلَّ نبؤهِ
وها أنذا فى غِمَارِ الحديثِ
أعودُ إلى مَوْجِ بَحْرِى بِقُوِّهِ !

(١٥)

أتانى صديقى المَغْنَى الصَغِيرُ
وقد صار شابًا ليطلبَ قَرْضًا
ولم أكُ أَمْلِكُ مَالًا وفيرًا
ولكنُ رأيتُ المعونةَ فَرَضًا

وكان به مثلُ همِّ دفينٍ
يكادُ بأن يطرحَ الخِلَّ أرضاً
والْحَحْتُ حتى يشي بالهمومِ
فأبدى التَّردُّدَ حيناً وأفضى
وقال لقد جاء بيتَ الفتاةِ
خطيبٌ ويملكُ حقلاً وروضاً
ويعرضُ مَهْراً كبيراً وداراً
ويُغري النواظرَ طولاً وعرضاً
وكان بشوشاً جميلَ الحياءِ
فلم تملكِ البنتُ للكهلِ رَفَضاً
وأما الفؤادُ فلم يُبدِ حُبّاً
وأما اللسانُ فلم يُبدِ بُغْضاً

(١٦)

وَلَمْ أَرَ فِيمَا حَكَى عَنْ نَظِيمَةٍ
أَيَّ مَأْسٍ تَهْزُ الصَّدُورُ !
فَأَيُّ زَفَافٍ لِمَنْ تَتَخَطَّى الشَّبَابُ
بِبِلَدَتِنَا مَصْدَرُ السَّرُورُ !
وَحَتَّى إِذَا كَانَ كَهْلًا تَصَابِي
فَفِي الْحُبِّ بَعَثُ لَهُ أَوْ نُشُورُ !
وَمَا دَامَ فِي الْكَيْسِ مَالٌ وَفِيرُ
فَكَأْسُ الْغُرَامِ بِمَالٍ تَدُورُ
وَكُنْتُ أَظُنُّ الزَّوْاجَ بِشَائِرِ سَعْدٍ
وَلَيْسَ بِهِ مَأْتَمٌ أَوْ شَرُورُ !
وَسَاءَلْتُ خَلِيَّ الصَّغِيرَ فَكَيْفَ
تَأْتِي لِحَزَنِ بِهِ أَنْ يَثُورُ ؟

فَقَالَ أَمَا كُنْتَ تَعْلَمُ حَقًّا
بَأَنَّ الْحَيَاةَ مَتَاعُ الْغُرُورِ ؟
فَهَلَّا اسْتَمَعْتَ لِمَا سَوْفَ أَحْكِي
وَهَلَّا غَفَرْتَ مَنَاحِي الْقُصُورِ ؟

(١٧)

وَقَالَ صَدِيقِي لَقَدْ كَانَ أَيُّوبُ زَوْجًا عَجِيبًا
يَحِبُّ الْحَيَاةَ وَيَرْجُو مِنَ اللَّهِ خَيْرَ النَّمَاءِ
وَكَانَتْ لَهُ زَوْجَةٌ قَدْ أَتَتْ بِالْبَنِينَ
فَكَانَ شُكُورًا لِفَضْلِ السَّمَاءِ
وَكَانَ بَنُوهُ دُؤُوبِينَ فِي الْحَقْلِ لَا يَعْرِفُونَ الْكَلَالََةَ
وَهُوَ بِهِمْ يَسْتَزِيدُ الْعَطَاءِ
وَأَمَّا جَمِيلَةٌ أُمُّ الْبَنِينَ
فَكَانَتْ تُفَاخِرُ بِالْحُسْنِ كُلِّ النِّسَاءِ

وَتَقْضِي الصَّبَاحَ تَوَكَّدُ مَا زَانَهَا مِنْ فُتُونٍ
وَتَأْتِي بِمَا لَمْ يَكُنْ مِنْ بَهَاءٍ
وَكَانَتْ تُحْسِنُ بَأْنَ الزَّوْاجِ بِتِلْكَ 'النَّظِيمَةُ' -
بَلَاءٌ مِنَ اللَّهِ أَيْ بَلَاءٌ
(وَلَيْسَ يُمَثَّلُ إِلَّا الْفَنَاءُ !)

وَلَكِنَّهَا مِثْلَ بَعْضِ النِّسَاءِ تَكْتُمُ الْغِلَّ كَالْأَقْوِيَاءِ
وَرَأَتْ إِلَى الْجِنِّ تَشْكُو الزَّمَانَ
وَتَطْلُبُ ثَأْرًا لَهَا فِي الْخَفَاءِ !

(١٨)

وَأَصْنَعِي حَقِيرٌ مِنَ الْجِنِّ لِلْوَسْوَساتِ بِوَكْرِهٍ
وَكَانَ التَّضَرُّعُ لِلْجِنِّ فُرْصَةً عُمَرَهُ !
فَقَدْ كَانَ يَبْغِي التَّقَرُّبَ زُلْفَى لِإِبْلِيسَ حَتَّى
يَكَافئه أَوْ لِيَعْلُو بِقَدْرِهِ

فَقَالَ لِرَبِّ الْقَبِيلِ الْأَثِيمِ سَأُنْزِلُ بِالزَّوْجِ
كُلَّ بَلَاءٍ يَحْطُمُ إِيْمَانَهُ أَوْ يَجِيءُ بِقَبْرِهِ
فَنَكْصِبُهُ بَيْنَ شَرِّ الْبَرَائِيَا
إِذَا ضَاقَ ذَرْعًا وَنَاءَ بِدَهْرِهِ
هُوَ الْآنَ يَشْكُرُ خَالِقَهُ ، وَالْمَلَائِكُ
فِي كُلِّ صُقْعٍ تَقُولُ بِشُكْرِهِ
وَلَكِنِّي سَوْفَ أُلْقِي عَلَيْهِ بَدَاءً غَرِيبٍ
وَلَيْسَ يُعَالِجُهُ غَيْرُ صَبْرِهِ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا نُضُوبُ الْمَعِينِ
وَجَدْبُ الرِّيَاضِ نَذِيرًا بِفَقْرِهِ
سَيَعْرِفُ ذُلَّ السُّؤَالِ ، وَهَمُّ الدُّيُونِ
يُنْغِصُهُ فِي خَفَاهُ وَجَهْرِهِ !

(١٩)

وكان الملاك المكلفُ ذاك المساءَ بدورِ الرّقابةِ
يسمعُ هذا الحوارَ الأثيمَ
فأهرَعَ من فورِهِ للَّذي فوقَهُ كى
يرى ما عساهُ يكونُ إذا صحَّ عزمُ الرجيمِ
وكان الذى فوقَهُ باسمًا
يسبِّحُ لله ربَّ الوجودِ الكريمِ
فأصغى وقال ببسمته لا تخف !
هل اجتزتَ أجوازَ هذا الفضاءِ لتبلغنى أمرَ هذا الزنيم ؟
ألا تعلمنَّ بأن الذى ينتويه الحقيقُ
ابتلاءً لأيوُبَ من عندِ ربِّ عليم ؟
فإن صبرَ العبدُ والتزمَ الشُّكرَ كان الأثيرُ
بِعفوِ الغفورِ الحليمِ

وَأَمَّا إِذَا مَا تَمَرَّدَ أَوْ فَقَدَ الصَّبْرَ
فَالْأَمْرُ فِي يَدِ أَسْمَى حَكِيمٍ
فَعُدْ لِمَكَانِكَ وَاصْدَعْ بِأَمْرِكَ !
فَلَيْسَ يَجَادِلُ فِي أَمْرِهِ غَيْرُ غَرٍّ غَشِيمٍ !

(٢٠)

وَقَالَ الْمَلَكُ حَنَانِيكَ لَمْ أَعْصِ أَمْرًا
وَلَكِنِّي دَهَشْتُ لَا أَبِينُ !
وَأَقْصِدْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ سَوْفَ يُعَانِي
بِوَحْشَتِهِ مَا لَهُ مِنْ مُعِينٍ
جَمِيلَةٌ حَادَتْ خُطَاهَا وَحَالَفَتْ الْعَاصِيَاتِ
وَأَيُّوبُ فِي يَدِهَا مُسْتَكِينٍ
وَكَيْفَ بِهِ لَا يُحِسُّ الْخِذَاعَ
وَكَيْفَ يَكُونُ مِنَ الْغَافِلِينَ ؟

فَهَلَّا سَمَحْتَ بَأْنِ أُرْشِدِ الْغَرِّ لِلْحَقِّ
حَتَّى يَجَاوِزَ جَذْبَ السَّنِينِ ؟
وَأَعْرِفُ أَنَّ الْمَلَكَ الْمُطِيعَ
لَهُ عَمَلٌ فِي مَرَاقِي الْيَقِينِ !
وَقَالَ الْمَلَكَ الْكَبِيرُ عَلَيْكَ بِرَوْجَةِ أَيُّوبَ
(أَعْنَى نَظِيمَةً) فَازْهَبْ فَأَنْتَ عَلَيْهَا أَمِينُ
إِذَا انْحَطَّ كُلُّ الْبِرَايَا وَذَلَّ بِظُلْمِ الْحَيَاةِ الْعَزِيزُ
فَإِنَّ قَنَاءَ نَظِيمَةٍ لَيْسَتْ تَلِينُ !

(٢١)

وَعَادَ الْمَلَكَ لِيَشْهَدَ مَا حَزَّ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَرَاهُ
نَضُوبَ الْمِيَاهِ بِأَمْلَاكِ صَاحِبِينَا أَجْمَعًا !
وَمَا لَبِثَ الْحَقْلُ أَنْ صَارَ قَفْرًا
وَكُلُّ الرِّيَاضِ غَدَتْ بَلْقَعًا

وَحَارَ الْمَلَاكُ لِسُرْعَةِ مَا قَدْ أَتَاهُ الْحَقِيرُ
وَشَرُّ الْبَلِيَّةِ مَا أَسْرَعَا !
وَقَالَ لِأَبْدَأْ بِتَثْبِيتِ قَلْبِ نَظِيمَةٍ
لَا يَجْمَلُ الْيَوْمَ أَنْ تَجْزَعَا !
وَهَا هُوَ يَأْتِي بِحُلْمِ انْحِسَارِ الْبَلَاءِ كَأَصْدَاءِ هَمْسٍ
وَيَرْجُو مِنَ اللَّهِ أَنْ تَسْمَعَا
وِظْلٌ يُسَبِّحُ لِلْحَقِّ حَتَّى قُبَيْلِ الشُّرُوقِ
وَأَلْوَانُهُ فِي السَّمَاءِ لُمَعَا
وَمَاجَتْ بِنَفْسِ نَظِيمَةٍ أَلْحَانُ ذَاكَ الْمَلَاكِ
فَكَادَتْ بِهَا الْعَيْنُ أَنْ تَدْمَعَا
وَقَامَتْ تُكَلِّمُ أَشْتَاتَ حُلْمِ الْمَلَاكِ
وَمَا نَبَذَ الذَّهْنُ مِنْ خَلْطِهِ أَوْ وَعَى !

(٢٢)

وَرَدَّدَ أَهْلُ رَشِيدٍ نُّتَارَ الْحَدِيثِ عَنِ الْجَدْبِ فِي
أَرْضِ أَيُّوبَ بَعْدَ الْجَفَافِ وَسَمَتِ الْخَرَابُ
وَقَالُوا تَرَى قَارَفَ الْمُوبِقَاتِ
وَمَا يَسْتَحِقُّ صُنُوفَ الْعَذَابِ ؟
وَالَا فَكَيْفَ غَدَاً مَاؤُهُ
شَحِيحاً وَكُلُّ بَرِيقٍ سَرَابٌ ؟
لَقَدْ كَانَ فِي الْجَهْرِ شَهْمًا شَرِيفًا
نُسَمِيهِ بِالْحَقِّ زَيْنَ الشَّبَابِ
فَهَلْ تَمَّ سِرٌّ وَلَسْنَا بِهِ عَارِفِينَ
أَحَالَ الرِّيَاضَ قِفَاراً يَبَابُ ؟
وَكَدْتُ أَسْأَلُ مُلْهَمَةَ الشَّعْرِ وَالْأَغْنِيَاتِ
عَنِ الْحَقِّ فِيمَا عَنِ الْعَيْنِ غَابُ

فَأَنْبَتَ شَوْكًا مَكَانَ الزُّهُورِ
لِيَسْقِيَهُ مَرًّا بِدِيلِ الرُّضَابِ
وَلَمْ أَكْ أَدْرِكْتُ طَوْرَ الرَّجَالِ
فَلَمْ أَرَ فِي مَسْلَكِي مَا يُعَابُ !

(٢٣)

وَقَفْتُ لَدَى دَارِ أَيُّوبَ وَحْدِي طَوِيلًا
كَأَنِّي أَحَادِثُ بَعْضَ الدَّمَنِ
وَأَشْهَدُ أَطْلَالَ عَزٍّ تَلِيدٍ
وَأَمْجَادَ عُمُرٍ مَحَاهَا الزَّمَنُ
أُسْرَحُ طَرْفِي بِعَرْشٍ تَهَاوَى
وَهَبْتُ عَلَيْهِ رِيَّاحُ الْمِحْنِ
وَجَاشَ فُؤَادِي بِلَحْنِ حَزِينٍ
وَكَدْتُ لَوْطَاتِهِ أَنْ أُجَنَّ

وبعد طویلِ حنینٍ لصوتِ الفتاةِ
ويا طولَ ما كنتُ للنِّغماتِ أحنّ
تحولَ وجهي عن الدَّارِ نحوَ رمالِ رشيدٍ
أحاولُ تعزيةَ النَّفسِ في صمتِها عن حزنٍ
وكانَ كذلكِ دأبُ الصِّبَا
وكنتُ شغوفاً بهذا السننِ
فكمُ ساخٍ في موجِ تلكِ الرِّمالِ
قوىٌ يدبُّ وشيخٌ وهنٌ !

(٢٤)

ويعلمُ ربِّي مدى ما تألَّمتُ في وقفتي
أشاهدُ ما كادَ دهرِي أن يَخسِفَهُ
كأحلامٍ شعرٍ غَذَّتْهَا الفتاةُ
فباتتُ تننُّ بأيدي الغدِ المُجحفَةِ

وما قد حَفِظْتُ بِأَلْحَانِهَا
فَكَانَ لِيَ الْعِلْمَ وَالْمَعْرِفَةَ
تَطُوفُ بِذَهْنِي مُشَاعِرٌ وَهْمٌ مَرِيرٌ
وَتُلْقَى بِأَسْئَلَةٍ مُلْحِفَةٍ
وَتَبْعُ شَيْطَانُ شِعْرِ جَدِيدٍ
أَبَى عَقْلِي الْجَادُّ أَنْ يَصْرِفَهُ
لِيُوحِيَ بِالسَّوَاءِ - سَوْءِ الْمَالِ -
فَأَقْوَالُهُ كُلُّهَا مُرْجِفَةٌ
وَيُسْرِفُ فِي وَصْفِ مَا كَابَدُوهُ
وَكُلُّ تَصَاوِيرِهِ مُسْرِفَةٌ
وَقَبْلَ انْطِلَاقِي لِمَحْتِ ابْنِ أَيُّوبَ (أَكْبَرِهِمْ) قَادِمًا
وَيَحْمِلُ فِي يَدِهِ أَرْغِفَةً !

تبدى الشحوبُ على وجهه
ومحلُّ اللَّياليِ بجسمٍ نحيلٍ
وعينٌ بدتْ كالزجاجِ اليبيسِ
خلَّتْ من بريقِ الضياءِ الأصيلِ
بمحجرها ثَبَّتَتْ فى برودِ
يُجمدُ أى دُموعٍ تسيلُ !
رنوتُ إليه وقاربتهُ
فأدركتُ فيه سِماتَ العليلِ
ولم يتكلمْ ولكنَّهُ فَتَحَ البابَ ثم اختفى
وفى رعدةٍ اليدُ ذُلُّ الدليلِ
ودونَ انتظارٍ وجدتُ نظيمةً باسمه فى حياءِ
لدى البابِ تدعو 'شُويعرَها' للدُّخولِ !

ولم أتردد لأنَّ المكان يكادُ يكونُ مكاني
سمعتُ به كُلَّ لَحْنٍ جميلٍ
وفى رُكنٍ 'منظرة' البيتِ كان الهزيلُ
أجل ! كانَ أيوبُ يقبَعُ مثْلَ الحميلِ !

(٢٦)

وأوقفتُ مجرىَ الحديثِ لأسألَ عَمَّا
جَرى لجميلةَ بَعْدَ زوالِ النعيمِ
وكيفَ تَلَقَّتُ مصيراً رَجَتْهُ لَأَيُّوبَ
حتى يُسَاقَ بِهِ لِعَذَابٍ أليمٍ ؟
وهلْ شَكَرْتَ حينَ حَلَّ الخرابُ جُهوداً
لِإِبْلِيسَ يَرْقى بها فى مَرَاقى الجَحِيمِ
وكيفَ تَحَمَّلْتَ الضَّنْكَ وهى التى ما
رَأَتْ عندَ أَيُّوبَ إِلا الهَنَاءَ المُقِيمَ

فَقَالَ بِحَزْنٍ جَمِيلَةٍ غَانِيَةٌ كَالزَّمَانِ
وَهَلْ لِلزَّمَانِ عَهْدٌ تَدُومُ ؟
لَقَدْ كَانَتْ الصَّفْوَةُ عِنْدَ صَفَاءِ السَّمَاءِ
وَحُلَّ التَّلْبُّدُ عِنْدَ حُلُولِ الْغُيُومِ
دَعَتْهُ لِتَطْلِيقِهَا فَاسْتَجَابَ مُطِيعًا
كَمَنْ كَانَ يَفْصِدُ عِرْقَ الزَّمَانِ الْقَدِيمِ
تَأَلَّمَ سَاعَتَهَا ثُمَّ أَجْهَشَ لَكِنْ
تَحَمَّلَ تَوْدِيعَهَا بِاصْطِبَارِ الْحَلِيمِ

النشيد الثالث

(٢٧)

تَأَمَّلْتُ مَا قَصَّ خَلِيٌّ وَقُلْتُ
وَهَلْ ذَاكَ حَتْمٌ بِكُلِّ زَمَانٍ
هَلْ الْغَدْرُ مِنْ طَبْعِ كُلِّ الْبَرَايَا
أَمْ الْغَدْرُ يَفْرِضُهُ الْحَدَثَانُ
وَقُلْتُ لِنَفْسِي فَكَيْفَ اسْتَطَابَتْ
جَمِيلَةً بِالْأَمْسِ هَجَرَ الْمَكَانِ
وَكَيْفَ تَخَلَّتْ عَنِ الْأَوْفِيَاءِ
وَهُمْ يَتَسَاقُونَ كَأْسَ الْهَوَانِ
وَكُنْتُ تَخَطَّيْتُ طَوْرَ الشَّبَابِ
وَمَا زِلْتُ غِرًّا بَرِيًّا الْجَنَانِ
وَكَانَ صَدِيقِي يَحَادِثُ قَلْبًا
رَضِيْعًا غَذَاهُ لَبَانُ الْحَنَانِ

فَهَلْ يُفْطَمُ الْمَرْءُ حِينَ يُفَاجِئُهُ
الشَّرُّ بِالرُّمْحِ حَادَّ السِّنَانِ
لِطَعْنَةٍ مِنْ يَتَوَقَّعُ حَرْبًا
وَلَمْ تَكُ لِي خِبْرَةً بِالطَّعَانِ

(٢٨)

تَسَاءَلْتُ فِي خَاطِرِي عَنْ جَمِيلِهِ
وَقَدْ ذَاغَ عَنْهَا جَمِيلُ السَّجَايَا
وَكُنْتُ سَمِعْتُ بِهَا ثُمَّ شَاهَدْتُهَا
ذَاتَ يَوْمٍ بِفَجْرِ صِبَايَا
بُوجِهِ مَلِيحٍ وَخُضِرِ عُيُونِ
وَبَسْمَةِ سِحْرِ غَذَّتْهَا التَّنَايَا
تَتِيهِ بِخُضِرِ دَقِيقِ نَحِيلِ
وَقَدْ يَمِيسُ بِمَا فِي الْحَنَايَا

أَلَمْ يُعْطِهَا الدَّهْرُ كُلَّ الَّذِي
يُضِنُّ بِهِ بَيْنَ تِلْكَ الْبَرَائِ
كَسَاهَا الْجَمَالَ وَفَرَطَ الْفُتُونِ
عَوَارِيَّ يَمْنَحُهَا لِلصَّبَايَا
فَمَا سَمِعَتْ قَوْلَ أَيْ حَكِيمٍ
يَطَالِبُهَا بِاتِّبَاعِ الْوَضَايَا
وَلَكِنَّهَا كَفَرَتْ كَالْكُنُودِ
وَأَنْكَرَتْ الْيَوْمَ كُلَّ الْعَطَايَا !

(٢٩)

وَعُدْتُ إِلَى الْخَلِّ أَسْأَلُهُ أَنْ يَقْصَّ
حَدِيثَ نَظِيمَةٍ عَمَّا جَرَى
فَاطْرَقَ فِي شَجَنِ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ
سَيُذْهِبُ هَذَا الْحَدِيثُ الْكَرَى

إِذِ انْطَلَقَتْ تَتَغَنَّى بِعَدْلِ السَّمَاءِ
وَحِكْمَتِهَا فِي شُؤْنِ الْوَرَى
وَفِي الْحَالِ قَصَّتْ عَلَى الْمَنَامِ الَّذِي
رَأَتْ فِيهِ كَيْدًا لَهَا دُبْرًا
كَأَنَّ نَظِيمَةً قَدْ سَمِعَتْ لِلْمَلَائِكِ
بِالْأُذُنِ فِي خَطَرَاتِ السُّرَى
فَكَانَتْ لَهَا الرُّوحُ أُذُنًا سَمُوعًا
وَكَانَ لَهَا الْقَلْبُ عَيْنًا تَرَى
وَبَعْدَ قَلِيلٍ أَتَتْ بِالرَّبَّابِ الْجَمِيلِ
وَوَغْنَتْ لَنَا اللَّحْنُ مُسْتَبْشِرًا
سَأُنْشِدُ بَيْنَ يَدَيْكَ لُحُونًا أَتَتْهَا
لِتَدْعُوا الْمَعَذِّبَ أَنْ يَصْبِرَا :

حديث الأمل

(٣٠)

(١)

تَسَاءَلْتُ يَا طَالِبًا لِلْيَقِينِ
عَنِ السُّرِّ فِي دَوَرَاتِ السِّنِّينِ
وَعَنْ غَيْرِ الدَّهْرِ حِينَ يُؤَلَّى
وَعَمَّا يُصِيبُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ

(ب)

زَعَمْتَ لِنَفْسِكَ عَقْلًا فَرِيدًا
وَذِهْنًا تُرِيدُ لَهُ أَنْ يَسُودَا
وَفِكْرًا تَمْلِكُ هَذَا الْوَجُودَ
وَتَرْجُو لَهُ جَاهِدًا أَنْ يَزِيدَا

(ج)

فَهَلَّا تَسَاءَلْتَ عِنْدَ الْفَسَقِ

عن النورِ في الشرقِ كيف انبثَقُ
وعن حُمْرَةٍ في طُيُوفِ الأَصِيلِ
وَلَوْنِ البَنْفَسَجِ عند الشَّفَقِ

(٤)

وهَلَا تَسَاءَلْتَ عن كُلِّ نَسْمَةٍ
تَهْبُ بِصَيْفٍ حَرُورٍ كَبَسْمَةٍ
تُصَوِّرُ في النَّفْسِ ما رُمَتْهُ
وترسُمُ في القلبِ ما شَبَّتَ رَسْمَهُ !

(٣١)

(هـ)

وهَلَا تَسَبَّأْتَ عن شَادِيَاتٍ
بَكْرُنَ بِصُبْحِ الْوَرَى غَادِيَاتٍ
غَدَوْنَ خِمَاصًا وَعُدْنَ بِطَانًا

وَهُنَّ بِجَوِّ السَّمَاءِ شَاكِرَاتٌ

(و)

وَهَلَّا تَسَاءَلْتِ عَنْ مَاءِ بَحْرِ
تَغْذِي مِنَ الْعَذْبِ فِي كُلِّ نَهْرٍ
وَلَكِنَّهُ مِثْلُ مِلْحٍ أُجَاجٍ
تَزِيدُ مَرَارَتَهُ كُلَّ مَرٍّ

(ز)

تَأْمَلُ ظِلَامًا بَلِيلِ طَوِيلٍ
وَلَيْسَ بِهِ غَيْرُ نَجْمٍ عَلِيلٍ
أَلَا تَسْمَعُ الْآنَ فِي الصَّمْتِ صَوْتًا
يَشِي بِصَبَاحٍ بِهِجٍ جَمِيلٍ

(ح)

فهاأنذا أسمعُ الصَّوتَ همسًا
يكادُ بأنْ يلمسَ القلبَ لمسًا
يؤكدُ أنَّ الصَّبَّاحَ قَريبُ
وأنَّ سَوادَ الدُّجَى ليسَ رمسًا

(٣٢)

وأحسستُ في كُلِّ نبضٍ بقلبي
كأنِّي أنا صاحبُ الكلماتِ
وقلتُ نظيمةً ربةً شِفْرِ
لها منطقٌ دافقُ النُّغماتِ
يثيرُ الخيالَ ويغزو الجَمالَ
ويبعثُ بالبشرِ والبسماتِ

وَيَنْفَى الْهُمُومَ بِإِيمَانٍ رُوحٍ
تُبَدِّدُ أَنْوَارُهَا الظُّلُمَاتُ
وَأَحْسَسْتُ أَنَّ نَظِيمَةَ كَانَتْ
تَعُدُّ الْوَفَاءَ مِنَ الْحُرُمَاتِ
فَأَحْرَفُهَا صَادِقَاتُ التَّغْنَى
بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ مَعْتَصِمَاتُ
وَلَمْ تَبْغِ سِوَاءَ بَأَى عَدُوٍّ
وَمَا بَدَتْ الْيَوْمَ مَنَاقِمَاتُ
وَلَمْ تَكُ إِلَّا دَعَاءَ كَرِيمٍ
مِنَ الْقَلْبِ يَسْتَنْزِلُ الرَّحِمَاتُ

(٣٣)

وَلَكِنْ تُرَى هَلْ أَشَارَتْ بِطَرْفٍ خَفِيٍّ
إِلَى مَنْ يَسْأَلُ عَنْ عَدْلِ رَبِّ رَفِيعٍ ؟

أَكَانَتْ نَظِيمَةً أَمْ كَانَ أَيُّوبُ يَوْمًا
يَظُنُّ الظُّنُّونَ بِرَبِّ الْوَجُودِ الْبَدِيعِ ؟
وَقَلْتُ لِنَفْسِي لِأَطْرَحُ عَلَيْهِ السُّؤَالَ
كَأَنِّي أَسْأَلُ نَفْسِي مِثْلَ الْجَمِيعِ !
وَيَا عَجَبًا ! قَالَ أَيُّوبُ سُبْحَانَ رَبِّي !
وَكَيْفَ أَشْكُ بِرَبِّ حَكِيمٍ سَمِيعٍ ؟
وَحَاوِلْ أَنْ يَنْهَضَ الْآنَ مَنْ رُكْنِهِ كَى
يُعَبِّرَ عَمَّا أَتَى قَلْبَهُ مِنْ خُشُوعٍ
فَخَانَتْهُ أَقْدَامُهُ فَجَاءَتْ ثُمَّ قَالَ
وَفِي الْعَيْنِ تَبَرُّقٌ كَالدَّرِّ بَعْضُ الدُّمُوعِ
لَقَدْ بَعْتُ يَا صَاحِبَ كُلِّ الذِّى فِي يَدِي
وَلَمْ يَبْقَ مَا قَدْ أَقَايِضُ أَوْ مَا أَبِيعُ !
وَلَكِنِّي مُؤْمِنٌ بِالنَّجَاةِ وَلَوْ جُعْتُ دَهْرًا

وماذا يُضِيرُ الفَتَى أَنْ يَجُوعَ ؟

(٣٤)

وقال لقد كنتَ أوَّلَ مَنْ زَارَنَا
من الصَّحْبِ منذُ ازْدَارِ الزَّمانِ العَجيبِ !
فأكثرُ ما يحزنُ النَّفسَ هجرُ الأحبةِ أو قُلُ
جُحودُ الذي كانَ عندكَ يوماً حبيبُ !
تُرى أينَ ولَّى الصَّحابُ وكيفَ لوى الناسُ
أوجهُهمْ بل وحتى القريبُ ؟ !
لقد كانَ مَنْزِلُنَا نَزْهَةً للعيونِ
ويرتادُها الكلُّ حتَّى الغريبُ !
وها أنتَ تأتي وأنتَ الصَّبِيُّ
فَتَكْسِرُ طَوْقَ جَفَاءٍ رهيبُ
ولولا نظيمةٌ ما زُرْتَنَا - أو لعلِّي أقولُ -

إِذَا لَمْ تَكُنْ مُغْرَمًا بِالْغِنَاءِ دَوُوبٌ !
وَلَسْتُ أَجَادِلُ فِي أَنْ حُزْنًا أَصَابَكَ
مِمَّا سَمِعْتَ عَنِ الْبُؤْسِ فِي بَيْتِنَا وَالنَّحِيبِ
وَلَكِنْ تَأْكُدُ - صَدِيقِي الصَّغِيرَ - بَأَنَّا هُنَا مُؤْمِنُونَ
وَإِيمَانُنَا صَادِقٌ لَا يَخِيبُ !

(٣٥)

وَمَرَّتْ لَيَالِي وَأَيَّامُ ذَاكَ الشِّتَاءِ
بَلَا مَوْقِدٍ يَصْطَلُّونَ بِهِ أَوْ غِذَاءُ
سِوَى مَا يَجُودُ بِهِ الصَّالِحُونَ
عَلَى فَقْرِهِمْ (لَا نَدَى الْأَغْنِيَاءِ)
وَعِنْدَ حُلُولِ الرَّبِيعِ (وَكُنَّا بِآخِرِ شَهْرِ الصِّيَامِ)
رَأَيْتُ نَظِيمَةً فِي الْجُرْنِ وَسَطَ الْفَنَاءِ
وَكُنْتُ إِذَا مَا انْتَهَى الدَّرْسُ أَقْصِدُ جُرْنَ الْحُبُوبِ

بشرقِ المدينةِ عندِ الخلاءِ
لأجمعِ ما كان من كسرِ أرزٍ
لإطعامِ أفراخنا في المساءِ
عجبتُ لمرأىِ نظيمةٍ في الجرنِ وهى تَمِيلُ
على بقعةٍ قد كساها الهباءُ
تُقلِّبُ فيها كمن يبتغى الأرزَ مثلى
وتُقعى مُحَدِّقَةً فى الهواءِ !
تأملتُ ما نبشتُ باليدينِ فلم أرَ شيئاً
جديراً بنَبشِ الثرى فى عناءِ !

(٣٦)

تَسَمَّرْتُ فى مَوْقِفِي جَامِداً
وقد أذهبَ النُّطْقَ عَنِّي العجبُ
وكاد الفضولُ يَحِثُّ لسانى

لَأَسْأَلَهَا مَا يَكُونُ الطَّلَبُ
وَلَكِنِّي اخْتَرْتُ بَعْضَ التَّمَهْلُ
بِالصَّبْرِ تَقْضِي حُدُودَ الْأَدَبِ
وَحِينَ التَّصَفَّتْ إِلَى الْأُفُقِ
أَدْرَكْتُ أَنَّ الْغُرُوبَ اقْتَرَبُ
وَأَنَّ السَّحَابَاتِ تَجْرِي سَرَاعًا
وَتُخْفِي رِيحًا خِفَافًا تَهْبُ
وَحِفْتُ الْغُبَارَ رَيْبَ الْعِثَارِ
إِذَا عَصَفَتْ أَيْ عَصَفَ تَرِبُ
وَكَانَتْ نَظِيمَةً ثَابِتَةً لَا تَرِيمُ
كَمَنْ يَسْأَلُ الْأَرْضَ عَمَّا احْتَجَبُ
فَنَادَيْتَهَا خَوْفَ تِلْكَ الرِّيحِ
كَطِفْلِ كَفَاهُ الْمَسَاءُ اللَّعِبُ !

فقامت نظيمة ذاهلة في عناءٍ
كمن يتهاوى لفرط اللغب
نظرت إليها وذكرتها بالغروب
كأنني أحداث ضوءاً غرب
كساها الشحوب وحتى الرداء
بدا حائل اللون كالكتيب
براها النحول وأخلق جلبابها
فكانت كمثل الخيال انتصب
وكان بعين نظيمة لمع غريب
كمن خشي الغد المرتقب
فألححت حتى تحدث عما بها
وتكشف عما عساه السبب

فَقَالَتْ بِصَوْتٍ خَفِيضٍ جَمِيلٍ
لَقَدْ زَارَنِي حُلُمٌ مُفْتَصِبٌ
وَحَارَّضَنِي أَنْ أُنَاجِيَ التَّرَابَ
لَأَشْهَدَ فِيهِ هَنَاءً سَرَبٌ

حديث التراب

(٣٨)

وقالت سمعتُ بهذا الثَّرى
دبيباً يَطْنُ طنينَ الذُّبابِ
وما لبثَ الصَّوتُ أن صارَ لَفْظاً
يموجُ بألحانه في اصْطِخَابِ
فأطرقتُ مُصْغِيَةً للهديرِ
أرومُ المعانى من كلِّ بابِ
وكانَ حديثُ الثَّرى باكياً ضاحكاً
فقلتُ لعلَّ بأُذُنِي نشيشَ اضطرابِ
ولكنَّ كلَّ الحروفِ استبانَتْ
فهلاً علِمْتَ حديثَ التُّرابِ ؟
يقولُ لقد كنتُ لحمًا وعَظْماً
جمالاً فريداً وزهراً شبابِ

وَكُنْتُ أَتِيهِ عَلَى الْأَرْضِ جَمَّ الثُّبَاتِ
وَلَمْ أَرَ فَوْقَ الْبَسِيطَةِ شَيْئًا يُهَابُ
فَخُورًا بِبَاسِ الْفُتُوَّةِ فِي السَّاعِدَيْنِ
أَكَادُ لِزَهْوِي أَمْسُ السَّحَابُ

(٣٩)

وَقَالَ التَّرَابُ لَقَدْ كُنْتُ غَرًّا
وَأَزْهُوُ بِوَجْهِ صَبُوحٍ جَمِيلُ
بِجِسْمِي تَضِجُ الدِّمَا فِي الْعُرُوقِ
بِفُورَةٍ مِنْ وَثِقِ الدَّهْرِ أَلَا يَحُولُ
وَأُبْغِي الْمَرَّاحَ كَأَنِّي سَأُخْرِقُ أَرْضِي
مِنْ الْفَرَحِ لَسْتُ أَرَى الْمُسْتَحِيلُ
أُحِسُّ بِعُمْرِي مَدِيدًا طَلِيقًا
كَدَرْبٍ إِلَى أَبَدِ الْآبِدِينَ الطَّوِيلُ

على جانبيه غصونٌ تدلّتْ
وأزهاره ليس تدري الذبولُ
به الدّوحُ تعلو ذؤاباتُه
تُشاركها باسقاتُ النّخيلِ
وكنْتُ أحسُّ بأنّي بافاقِ هذا الفضاءِ
كنجمٍ أضاءَ وليس يخافُ الأفولُ
وكيف أخافُ الأفولَ وبى عنفوانُ
يُتَبَتَّنِي في السّما لا أميلُ !

(٤٠)

وذاتَ مساءٍ وبرْدُ الشّتَا نافذُ
للِعِظامِ ظلُّومٌ غَشُومُ
لَمَحَتْ تَكَاثُرَ سَحَبِ السّماءِ
وطَمَسَ بَوَارِقِ عَلَيَا النُّجُومِ

وْغَامَتْ بِقَلْبِي رُؤْيَ كُلِّ شَيْءٍ
كَمَنْ غَشِيَ الْعَيْنَ مِنْهُ السَّدِيمُ
وَحِلْتُ كَأَنَّ بِنَفْسِي حَسِيسًا
كَصَوْتِ احْتِرَاقِ حُطَامِ رَمِيمٍ
تَعْجَبْتُ مِنْ وَقْدِ نَارٍ بِبَرْدِ الشِّتَاءِ
وَلَا تَذَرُ إِلَّا نِيَّ الْإِلَهِيَّ شِيمُ
وَسَرَّعَانَ مَا صَاحَ فِي دَاخِلِي صَائِحُ
بِرَنَّةٍ حُبٍّ وَوُدٍّ حَمِيمٍ
يَقُولُ بَأْنِي أُعُودُ تُرَابًا
وَلَمْ يَبْقَ فِي فُسْحَةِ الْعُمْرِ إِلَّا الصَّرِيمُ
وَلَكِنْ هَذَا التُّرَابُ يَعُودُ فَيَحْيَا
بِيَوْمٍ عَظِيمٍ لِبَعْثٍ مُقِيمٍ !

(٤١)

وتاهت عيونُ نظيمةَ في الأفقِ 'يا عجباً'

'كيفَ جاءَ الجنُّونُ قرينَ العيَاءِ !'

فمن ذا يصدقُ أنَّ نظيمةَ

ذاتَ الحِجَابِ وعَظِيمِ الذِّكَاةِ

تُتَاجَى التُّرَابَ وتُسْتَنطِقُ القَفْرَ

حينَ يدورُ الزَّمانُ ويأتى البلاءُ

وكيفَ أتى في المنامِ المَلَكُ

فجمدَ فيها دَبيبَ الرَّجَاءِ ؟

وقلتُ لعلَّ المُنَادِيَّ عَفْرِيْتُ جِنٌّ

يُدَبِّرُ للشرِّ في ليلةٍ من عَمَاءِ !

فسَاءَ لُتُّهَا عن حديثِ المنامِ

وفى القلبِ ما يعرفُ الأتقياءُ

فقالَت ملاكُ يُنبِئُنِي بالمزيدِ

من الهم والغم في بعض داء
كأن المنام يُخَيِّرُنِي بين راحة يوم الفناء
وآلام طول البقاء !

(٤٢)

وقال الملاكُ قد اجتازَ أيوبُ
مِحْنَتَهُ باقتدارٍ وصَبْرٍ
وصَبْرَ ابنِ آدمَ مَربُطُ إيمانه
بالإلهِ وأَيَّةُ شُكْرِ
يُحَدِّثُ بالصَّبْرِ عن ثِقَةِ بالإلهِ
بِكُلِّ ثَبَاتٍ وَفَخْرٍ
وَكُنْتَ لَهُ يا نَظِيمُهُ كَنزاً
لِذاكَ اليَقِينِ وَأَثْمَنَ ذُخْرِ
تَشُدِّينَ مَنْ أَزْرَهُ كُلُّ يَوْمٍ
وَتَنْفِينَ أَيَّ جَنُوحٍ لِكُفْرِ

فَبَاتَتْ عَفَارِيْتُ جِنِّ جَمِيلَةٍ
ذَاهِلَةَ اللَّبِّ فِي كُلِّ شِبْرِ
وَسَارَعَتْ الْيَوْمَ تَرْجُو ابْتِلَاءً
جَدِيداً وَتَمْكُرُ أَسْوَأَ مَكْرٍ
وَتَأْتِي بِدَاءِ عُضَالٍ شَدِيدٍ
يَهْدُ الصَّلَابَةَ فِي أَيِّ صَدْرٍ !

(٤٣)

وَذَكَ يَا صَاحِبِي مَا سَمِعْتُ
بِأُذُنِي وَلَيْسَ وَلِيدَ الْخَبَالِ
وَالْمَحُ فِي عَيْنِكَ الْآنَ شَكَا
وَخَوْفًا مِنَ الْخُرْقِ صِنُ الْضَّلَالِ
وَلَكِنِّي مِثْلُ كُلِّ الْحَيَارَى
وَأَسْعَى لِفَوْزٍ بِعِيدِ الْمَنَالِ
فَكَيْفَ أُعِينُ الْفَقِيرَ الشَّقِيَّ

على سَقَمٍ مُنْذِرٍ بِالْوَبَالِ ؟
وكيفَ بِصَبْرٍ على يَأْسِهِ
إذا ما أُصِيبَ بداءٍ عُضَالٍ ؟
وهل كان هَمْسُ التُّرَابِ العجيبِ
من الوهم أو شَطَحَاتِ الخيالِ ؟
أليسَ حديثُ التُّرَابِ الصَّدُوقِ
نذيراً يقولُ بِقُرْبِ الزَّوَالِ ؟
ألا إن هَمِّي ثَقِيلٌ ثَقِيلُ
تنوءُ بهِ راسياتُ الجِبَالِ !

(٤٤)

ولاحَ بعينِ نظيمةٍ لمعُ غريبُ -
نذيرُ بقربِ الضَّرَامِ
وخِفْتُ اشتعالِ التَّأْسَى المريرِ

وَحِفْتُ الرُّؤْيَى وَانْفَلَتَ الزَّمَامُ
فَأَطْرَقْتُ فِي أَلَمٍ حَائِرًا
وَلَمْ أُسْتَزِدْ مِنْ حَدِيثِ الْمَنَامِ
وَإِذْ بِالرِّذَاذِ تَسَاقَطَ مِنْ حَوْلِنَا
فَاتِرًا مِثْلَ دَمْعِ الْغَمَامِ
وَسِرْعَانَ مَا جَاءَ صَوْتُ الْمُؤَذِّنِ
يُغْلِنُ آخِرَ شَهْرِ الصِّيَامِ
وَأُسْرَعَتُ الرِّيحُ فِي مِثْلِ عَصْفٍ
يَحُثُّ الْمَسَاءَ وَزَحَفَ الظَّلَامُ
وَكُنْتُ أَخَافُ شَايِبَ ذَاكَ الرَّبِيعِ
وَأَخْشَى شُرُودَ الْكَلَامِ
وَلَكِنِّي يَا أَخِي قَدْ دَهَشْتُ إِذْ افْتَرَّ
تَغَرُّ نَظِيمَةٍ عَمَّا بَدَا كَابْتِسَامُ !

النشيد الرابع

تَوَقَّفَ خِلَى وَكُنْتُ أَتَابِعُ
مَا كَانَ لَيْلَةَ عِيدٍ بَعِيدُ
وَكُنْتُ تَرَكْتُ رَشِيدَ سَنِينَا
وَلَمْ أَدْرِ مَاذَا جَرَى فِي رَشِيدُ
وَكُنْتُ أُرِيدُ اجْتِلَاءَ الْمَصِيرِ
فَهَلْ هَذِهِ الْيَوْمَ دَاءٌ عَنِيدُ ؟
وَكَيْفَ تَلَقَّاهُ أَيُّوبُ - بِالْكَفْرِ
أَمْ بِاصْطِبَارٍ فَرِيدُ ؟
نَظَرْتُ إِلَى صَاحِبِي الْمَتَانِي
وَقَدْ صَارَ صَاحِبَ رَأْيٍ سَدِيدُ
وَأَثَرْتُ إِلَّا أَعِيدَ السُّؤَالُ
وَإِنْ كُنْتُ حَقًّا أُرِيدُ الْمَزِيدُ
وَبَعْدَ السَّكُوتِ وَبَعْدَ التَّرَدُّدِ

قلتُ له إنَّنى كالشَّريدُ !
أعيشُ بالقاءِ شِعْرى وأشْعُرُ
فى بهمةِ اللَّيلِ أنى وحيدُ

(٤٦)

وقلتُ لخلّى لقد كُنْتُ فى وحشةٍ
دونَ أنْسٍ ودونَ رفــــيقٍ
وقلِّبى مشوقٌ لأهلِ رشيدٍ
ودِفءِ الخليلِ وصدقِ الصديقِ
فإنى أعيشُ مع القُدَماءِ
بأثارِ ماضٍ بعيدٍ سحيقٍ
وفى ذاكِ تعزيةً عن خِواءٍ
وفقرٍ مقيمٍ وهمٍّ وضيقٍ
وكلِ مساءٍ أغنى الملاحمَ

لِلْحَالِمِينَ بِمَجْدٍ عَرِيقُ
أَعْوَضُهُمْ عَنْ شَقَاءِ الْحَيَاةِ
بِلَحْنٍ جَمِيلٍ وَصَوْتٍ رَقِيقٍ
فَكَيْفَ أَصْبُ لَهُمْ هَمُّ أَيُّوبَ
زَيْتًا عَلَى نَارِ ذَاكَ الْحَرِيقِ ؟
وَكَيْفَ أَتَاهُ شَقَاءُ السَّقَامِ
وَأَيُّوبُ مِنْ عَوَزٍ لَا يُفِيقُ ؟

(٤٧)

وَقَالَ صَدِيقِي غَرِيبُ كَلَامِكَ هَلْ كُنْتَ
تَحْدِسُ مَا جَالَ فِي خَاطِرِي ؟
وَهَلْ كُنْتَ تَدْرِي بَأَنَّ حَدِيثَ الْمَنَامِ
يَجِيءُ بِسُقْمِ الْغَدِ الْغَادِرِ ؟
لَقَدْ صَارَ أَيُّوبُ خَدْنُ الْفِرَاشِ

يُقَلِّبُ جَنْبَيْهِ مِنْ مَرَضٍ كَاسِرٍ
وَلَا يَسْتَرِيحُ بِنَوْمٍ وَلَا عِنْدَ صَحْوٍ
لِقُرْحٍ بِبَشَرَتِهِ فَائِرٍ
وَلَكِنَّهُ لَيْسَ يَشْكُو الزَّمَانَ وَلَا
مَا أَتَى مِنْ أَسَىٍّ غَالِبٍ قَاهِرٍ
وَكُنْتُ قَلِيلَ الزِّيَارَةِ فِي الصَّيْفِ كِيلاً
أَزِيدَ تَأْسِيَّ الْفَتَى الصَّابِرِ
وَأَعْجَبُ كَيْفَ بِهِ قَدْ تَكْتُمُ مَا فِيهِ
مَنْ أَلَمٍ مُقْعَدٍ أَسِيرٍ
وَذَاتَ مَسَاءٍ سَمِعْتُ فَتًى يَتَغَنَّى
بِلَحْنٍ نَظِيمَةٍ فِي الْأَمَلِ الْوَافِرِ !

(٤٨)

وساءلته كيف جاء بهذا الكلام الرفيع

وهذا التَغْنَى وتلك اللُّحُونُ

فقال : ”سمعتُ نظيمةً تشدُّو به ذاتَ يومٍ

بحفلٍ زفافٍ بصوتٍ حنونٍ

وعندي وعند الشبابِ بِبُرجِ رشيدٍ ولُوعٍ

بصوتِ نظيمةٍ لا بَلْ جُنُونٍ

فما إن سَمِعْنَا بِمُقْدِمِهَا وَالْبِطَانَةَ حَتَّى

سَعَيْنَا لِنَجْرَعَ فَنَ الْفُنُونُ

وسِرْنَا طويلاً أنا والصحابُ ركبنا الصعابَ

وفى الفنِّ كلُّ الصعابِ تهونُ

سَهْرُنَا لِنَسْمَعَ ثُمَّ نُرَدِّدَ حَتَّى الصَّبَاحِ

وما غَمَضْتُ لِلصَّحَابِ جُفُونُ !“

وأدركتُ من مُجْمَلِ الْقَوْلِ أَنَّ نَظِيمَةَ لَيْسَتْ

تُحَاوِلُ إِلَّا اتِّقَاءَ الْعُيُونِ

وَتَقَبَّلْ أَجْرًا زَهِيدًا يُسَاعِدُ أُسْرَتَهَا فِي
صِرَاعِ الْحَيَاةِ وَقَهْرِ الْمَنُونِ !

(٤٩)

وَمَرَّ الشِّتَاءُ كَنَيْبَ اللَّيَالِي وَمَا مِنْ ضِيَاءٍ لَدَيْنَا
سِوَى مَا ذَوَى مِنْ شُمُوعٍ
وَأَكْثَرْتُ مِنْ طَرُقِ بَابِ نَظِيمَةٍ كَى أَطْمِنُّ عَلَى
حَالِ شَخْصٍ عَصِيٍّ الدُّمُوعِ
وَكُنْتُ أَرِيدُ التَّحَقُّقَ مِمَّا سَمِعْتُ وَأَرْضِي الْفُضُولَ
بِقَلْبٍ مُعْنَى وَلُوعٍ
وَفِي كُلِّ يَوْمٍ أَرَاهَا تُغْنِي وَتُنْشِدُ مِنْ شِعْرِهَا
مَا بَرَى الْقَلْبَ بَيْنَ الضُّلُوعِ
وَأَيُّوبُ فِي صَمْتِهِ صَابِرٌ بَلْ يَزِيدُ اصْطِبَارًا
وَيُبْدِي لِرَبِّ الْوُجُودِ الْخُشُوعَ

وكان إذا رفع الرأس كرهاً يعودُ طريحاً
ومال بالأمه للهجوعُ
وأخبرتُ شاعرتي بالذي ذاع من فنّها حسبماً
ردّته القرى والنُّجوعُ
فقلتُ فذلك ما كنتُ أخشاهُ حقاً وصدقاً
ولا تعجبين كيف أخشى الذُّيوعُ

(٥٠)

ولم أبْدِ دهشةً غرٌّ ولكنني قلتُ إنني
أريدُ لألحانها أن تشيعُ
وأقبلتُ أدعو نظيمةً قلباً وعقلاً إلى نشرِ
فنِّ السماواتِ بين الربوعُ
فما ضرَّ مطربَ أيِّ زمانٍ وأيّ مكانٍ شيوعُ
أغانيه بين الجميع !

كَأَنِّي بِهِ دَوْحَةٌ تَسْتَمِدُّ الرِّحِيقَ مِنَ الْأَرْضِ
كَيْ تَنْتَشِي بِالرَّحِيقِ الْفُرُوعُ
وَأَصْغَتْ إِلَيَّ بِشِبِّهِ اقْتِنَاعٍ وَلَكِنَّهَا تَتَحَاشَى
الذُّيُوعَ بِقَلْبٍ مَرُوعٍ !
وَأَلْحَحْتُ فِي كُلِّ يَوْمٍ إِلَى أَنْ تَلَأَشْتَ مَخَافُهَا
عِنْدَ مَقْدَمِ فَصْلِ الرَّبِيعِ
وَجَاءَتْ إِلَى النَّاسِ تَشْدُو بِشِعْرِ جَدِيدٍ وَرَنَاتِ
صَوْتٍ غَرِيبِ اللَّحُونِ بَدِيعِ
وَأَبْحَرْتُ فِي لُجَجٍ مِنْ لُحُونِ السَّمَاءِ بِدُونِ الْمَجَادِيفِ
بَلْ ذُونَ نَشْرِ الْقُلُوعِ !

حديث الرياح

(٥١)

وَحِينَ تَمَلَّكَ لَحْنُ نَظِيمَةٍ سَمِعَ الْخُضُورُ
لَخَفَقَ بِقَلْبٍ غَزَاهُ انْتِشَاءُ
تَخَلَّتْ عَنِ الْمُنْشِدِينَ الصَّغَارُ وَكُنْتُ أَنَا
بَيْنَهُمْ مِثْلَ طَيْرٍ بِأَعْلَى سَمَاءِ
وَرَنْتُ نُغُومَ الرَّبَابِ الْجَمِيلِ عَلَى غَيْرِ إِيقَاعِ
مَا فَاتَ مِنْ نَغَمَاتِ الْهَنَاءِ
وَقَالَتْ سَأُنْشِدُ لَحْنَ الْمَلَائِكِ دُونَ دُقُوفِ
كَمَا جَاءَ نِي فِي أَمَاسِي الْعَلَاءِ:

(١)

سَمِعْتُ الْمَلَائِكَةَ ذَاتَ اللَّحُونِ
تُغَنِّي عَنِ الْقَلْبِ رَاعِي الْفُنُونِ

وَتَحْكِي عَنْ الْحَقِّ حِينَ تَخْفَى
وَأَصْبَحَ يَبْدُو نَظِيرَ الْجُنُونِ

(ب)

تَقُولُ بِأَنَّ امْتِدَادَ الزَّمَانِ
نُشَارٌ مِنَ الْوَهْمِ فَوْقَ الْمَكَانِ
وَأَصْدَاءُ حَقٍّ بَعِيدِ الْمَنَالِ
يَغِيبُ عَنِ الْعَيْنِ فِي كُلِّ آنٍ

(٥٢)

(ج)

وَلَيْسَ الزَّمَانُ نَظِيرَ الزَّمَنِ
وَلَكِنَّهُ عَابِرٌ مُرْتَهَنٌ
مَلَامِحُ مِنْ خُطُواتِ الْأَبَدِ
وَدَيْمُومَةٍ تَتَخَطَّى الْمِحْنَ

(د)

وَكُلُّ جَدِيدٍ بِأَيَّامِكُمْ
صَدَى الْقَدِيمِ بِأَحْلَامِكُمْ
رُؤْيُ سَابِحَاتٍ كَمَثَلِ السَّحَابِ
وَتَبْدُو كَحَقِّ بِأَوْهَامِكُمْ

(هـ)

أَلَا تَشْهَدُونَ رَبَّابَ السَّمَاءِ
وَأَمْطَارَهُ فَوْقَ أَرْضِ النَّمَاءِ
وَفِي فَمِهِ الرَّعْدُ يَنْطِقُ حَقًّا
وَبِسْمَةِ رَحْمَةٍ بَرَقَ مَضَاءُ

(و)

وَلَكِنَّكُمْ لَا تَرَوْنَ الرِّيَّاحَ
بِظُلْمَةِ لَيْلٍ وَنُورِ صَبَاحٍ

كَأَنِّي بِهَا الرُّوحُ سِرُّ الْحَيَاةِ
تَدِفُ وَلَكِنْ بِغَيْرِ جَنَاحٍ

(٥٣)

(ز)

كَأَنِّي بِهَا مِنْ رِيَّاحِ الْخُلُودِ
نَرَاهَا بِأَنْفَاسِ هَذَا الْوُجُودِ
تَهْزُ الْجُسُومَ وَتَغْذُو الْعُقُولَ
وَنَرْجُو لَهَا إِنْ خَبَتْ أَنْ تَعُودَ

(ح)

كَأَنِّي بِهَا زَمَنٌ لَا يَبِيدُ
أَوِ الْأَبَدُ الْحَقُّ طَلَقُ مَدِيدُ
فَمَنْ أَزَلَ لَا قَرَارَ لَهُ
إِلَى كُلِّ صَعْبٍ عَصِيٍّ بَعِيدُ

(ط)

وفى مَكْمَنٍ مِنْ خَبَايَا النُّفُوسِ
سَتَلْقَوْنَ سِرَّ الْحَيَاةِ يَجُوسُ
عَلَيْكُمْ بِتَذْكَارِ قَوْلِ الرِّيحِ
وما قد تُخَبِّئُهُ مِنْ دُرُوسِ

(ي)

فلا تَطْمَعِ الْيَوْمَ فِي سِرِّهَا
بِهَمْسِ النَّسَائِمِ أَوْ جَهْرِهَا
ولكنْ تَأْمَلْ حَدِيثَ الرِّيحِ
وَأَبْحِرْ مَعَ الرُّوحِ فِي بَحْرِهَا

(٥٤)

وَلَمْ أَكْ أُوْمِنُ بِالْمَعْجَزَاتِ الْخَوَارِقِ
(لَسْنَا بِعَصْرِ النُّبُوَّةِ وَالْأَنْبِيَاءِ)

ولكنني - عندما اختتمت قولها -
وجدت البروق تشقُّ عَنانَ السماء !
ولم أستطع غمضَ عيني عن البرقِ أو سدَّ
أذني عن الرعدِ في جنباتِ الفضاء !
وقُلْ إنني قد ذهلتُ طويلاً وأصواتُ
ريحِ تدمدمٍ في كُلِّ قاصٍ وناءٍ
تُراها من الأصفياءِ بدنياً الملائك ؟
وأني لها أن تكونَ من الأصفياء ؟
وإن لم تكنْ من ذوى المعجزات الكرام
فها هي تغزو الربيعَ بعصفِ الشتاء !
فهل قالتُ الريحُ شيئاً لها أو أتاها
الملاكُ بسِرٍّ تجلَّى لها في الخفاء ؟
وقفنا جميعاً ونحن نرددُ همساً
نظيمةً لا شكَّ من خالصِ الأولياء !

وقلت لخلي لعلك أسرفت فيما افترضت
من القوة الحقة الخارقة
فبعض العواصف تغزو الربيع وتغزو الخريف
بصاعقة نارها حارقة
وكم شهد الناس مما بدأ معجزات وليس
سوى شطحات السما الدافقة !
وهل للملائك أن تستجيب لأحلام فردٍ
(ومهما تكن في الكرى صادقة)
إذا لم يكن ربُّ هذا الوجود يريد عقاباً
وإنذاراً أهل القرى المارقة ؟
وهل يتبدى لنا من سواد الأهالي مروقٌ
جديرٌ بصاعقة ماحقة ؟

فَقَالَ لَقَدْ كَانَ هَذَا بِشِيرَ اخْتِلَافٍ بِأَهْلِ
رَشِيدٍ وَمُعْجَزَةٍ لَاحِقَةٍ
فَقَدْ أَصْبَحَ الْكُلُّ يَدْرِكُ أَنَّ نَظِيمَةَ لَيْسَتْ
مُجَرَّدَ مَطْرَبَةٍ حَازِقَةٍ

(٥٦)

وَسَرْعَانَ مَا أُثْبِتَ الْحَدَثَانِ حَقِيقَةً مَا قَالَ
أَهْلُ الْقُرَى عَنْ رُؤَاهَا الْحَكِيمَةُ
فَكَانَتْ تَمُدُّ الضَّعِيفَ بِقُوَّةِ رُوحٍ مِنَ الشَّعْرِ وَاللَّحْنِ
يُحْيِي الْعِظَامَ الرَّمِيمَةَ
وَيَلْقَى الْمَرِيضَ بِهِ مَا يَزِيدُ الْفَوَادَ ثَبَاتًا
وَيَغْشَى الْخِيَالَ وَيُذَكِّي الْعَزِيمَةَ
وَكَانَتْ تَمُدُّ الْفَقِيرَ بِبَعْضِ الْعَزَاءِ عَنِ الضَّيْقِ
فِي رِزْقِهِ وَالْدُرُوبِ السَّقِيمَةَ

وتدعوهُ للبيتِ حتى يرى كيف يصْرَعُ أَيُّوبُ
بالصَّبْرِ أوجاعَ جِسْمِ أَلِيمِهِ
وكانتْ تُقَرِّبُنِي كُلَّ يَوْمٍ بِدَفْعِ الْوَلِيِّ
وآياتِ عَطْفٍ وَصِدْقِ حَمِيمِهِ
وكنتُ تَخْطِيتُ طَوْرَ صِبَايَ الْغَرِيرِ وَإِنْ كُنْتُ
أَرْجُو مِنَ اللَّهِ لِي أَنْ يُدِيمَهُ
لَأَنِّي أَخَافُ إِذَا مَا شَبَبْتُ عَنْ الطُّوقِ إِلَّا
أَظَلَّ الْأَثِيرَ بِدُنْيَا نَظِيمِهِ

(٥٧)

وقلتُ لِخَلِيٍّ فَذَلِكَ مِنْ سَنَوَاتِ صِبَاكَ فَكَيْفَ
بدا الآنَ شَيْئًا طَرِيفًا شَجِيًّا ؟
لقد هَجَّتْ يَا صَاحِ أَشْجَانٍ مِنْ صَاحِبِ اللَّفْظِ دَهْرًا
فَتَاهَ وَمَا عَادَ فِي النَّاسِ شَيْئًا !

لماذا تركت الدراسة مثلي ورمت الخيال
فخالفت رشدًا وعقلًا ذكيًا ؟
وكيف انتهت حُبُّ ذاك الغناء بِفَقْرٍ وكيف
نبذت وراءك عيشًا راضيًا ؟
إخالك في أسرِ ذاك الغناء تركت الحياة
لعشق التهاويم بالشعر غيا !
وكيف انتهت أمرُ أيوبَ قلُّ لي بصدقٍ وأفصح
فإنك ما كنت يومًا عييًا !
وهل صحَّ حلمُ نظيمة بالبرء بعد اضطبار
فعادَ إلى الناسِ كهلاً سويًا ؟
وهل ما انطفأ من لهيبِ الشبابِ يعودُ إلى المرءِ
بالروحِ حتَّى يعودَ فتيةً ؟

وَأُطْرَقَ رَاوِيَتِي سَاعَةً ثُمَّ قَالَ وَهَذَا قَدْ مَضَتْ
سِنَوَاتٌ عَجَافٌ ضُرُوسُ
وَزَادَ اشْتِدَادُ الْكُرُوبِ عَلَى أُسْرَةِ الصَّابِرِ الْمُسْتَكِينِ
وَزَادَ انْقِبَاضُ النُّفُوسِ
وَكَانَ لِصَوْتِ نَظِيمَةٍ فِي شِدْوِهَا بِهِجَةً مِثْلَ أَزْكَى
رَحِيقٍ بِأَزْكَى كُؤُوسٍ !
وَكَانَتْ تُخَفِّفُ لَذَعَ الْمَعَانَاةِ عَنْ كُلِّ قَلْبٍ فَتَحْيَى
رَجَاءَ الْحَزِينِ الْيَتُوسِ
وَشَاعَتْ بِدَائِعُ الْحَانِهَا ثُمَّ ذَاعَ صَدَاهَا فَأَصْبَحَ
فِي كُلِّ صُقْعٍ يَجُوسُ !
وَمَا عَتَّمَ النَّاسُ أَنْ أَمْنُوا أَنْ طَرَحَ الْقُنُوطِ هُوَ الدَّرْسُ
بَلْ هُوَ أَسْمَى الدَّرُوسِ !

فلم يعد الفقر يبدو أليماً ولم يعد الداء يحمل
وجه الكريه العَبُوسُ !
وأصبح أيوبُ رَمَزَ الصُّمُودِ يهزُّ قلوبَ العُتَاةِ
فيحنون شُمُّ الرؤوس !

(٥٩)

وَأَصْدُقُّكَ الْقَوْلَ يَا صَاحِبِي إِنَّنِي غَبْتُ فِي لُجَّةِ الْيَأْسِ
هَذِي السَّنِينَ الْعِجَافُ
وَكَانَتْ حَيَاتِي بِبَحْرِ نَظِيمَةٍ مِثْلَ السَّبَّاحَةِ فِي نَهْرِ
حُبٍّ عَمِيقٍ وَصَافٍ
أَغَالِبُ أَمْوَاجَهُ لَا أَخَافُ هَلَكَ الْغَرِيقِ وَلَا
أَبْتَغِي نَجْوَةً بِالضَّفَافِ
كَأَنِّي أَرَى بِالضَّفَافِ بَلَاقِعَ مُجْدِبَةٍ قَدْ بَرَاهَا
اشْتِدَادُ الظَّمَا وَالْجَفَافِ

وما كنتُ أرنو إلى رَغْدِ العَيْشِ بل اكَتَفَى بِالْفُتَاتِ
من الرِّزْقِ قَيْدَ الكَفَافِ
وكنتُ وِغِيرَى من المنشدين الصغارِ بدنيا نظيمةً
نلتفُ أَيْ التَّفَافِ
نُصَاحِبُهَا بل نُشَارِكُهَا مَا تَقُولُ وَتَفْعَلُ فِي كُلِّ
بَادٍ لَدَيْهَا وَخَافِ
وفى القلبِ من فَرَطِ حُبِّ اللُّحُونِ هَنَاءٌ عميقٌ يكادُ
يُذِيبُ حَوَاشِي الشَّفَافِ

(٦٠)

إلى أَنْ أَتَتْ لَيْلَةٌ من لِيَالِي الرِّبْعِ وَكُنَّا
نُغْنَى لَدَى مُوسِرٍ غَدِقِ الْيَدِ جَمُّ الْعَطَاءِ
إِذْ انْتَابَ شَاعِرَتِي مَا بَدَأَ كَالْتَّجَلَّى فَأَوْقَفَتْ
اللَّحْنَ وَالتَّفَتَّتْ مِثْلَ عَبْدٍ يُلَبِّي النَّدَاءَ

وتاهت عن الجَمْعِ نَظَرْتُهَا كَالَّذِي يَتَنَاجَى
وَحِيداً بِدُنْيَا مَشَارِقُهَا غَامِرَاتُ الضِّيَاءِ
وَحَارَ الصُّحَابِ - وَكُنَّا عَلَى عَتَبَاتِ الشُّبَابِ -
وَلَكِنِّي لَمْ أَحِرْ بَلْ رَأَيْتُ انْتِهَاءَ الْبَلَاءِ
وَبَشَّرْتُ صَاحِبِي وَنَحْنُ نُحَدِّقُ فِيمَا بَدَأَ مِنْ
بَعِيدٍ كَبَرُوقٍ بَأَنَّ الْمَرِيضَ أَتَاهُ النُّجَاءُ
وَإِذْ بِالرُّعُودِ تُدَوِّي وَبِالرَّيْحِ تَغْصِفُ وَالْمَاءُ
كَالسَّيْلِ يَجْرِي وَبِالْأَرْضِ تَرْتَجُّ رَجٌّ انْتِشَاءً
وَإِذْ بِنَظِيمَةٍ تَبْسِمُ مُشْرِقَةً وَهِيَ تَمْضِي
إِلَى الْبَابِ تَفْتَحُهُ لِلَّذِي جَاءَ جَمُّ الرُّوَاءِ
أَجَلُ كَانَ ذَلِكَ أَيُّوبَ يَخْطُو بِغَيْرِ عَصَا
عَلَى قَدَمَيْهِ كَمَنْ لَمْ يُحَطِّمَهُ مِنْ قَبْلُ دَاءٌ !

وَصِحْتُ لَقَدْ حَقَّقَ اللَّهُ مُعْجَزَةً مِنْ سَمَاهُ
وَهَا أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ الثُّوَابُ
لَقَدْ أَتَيْتَ الصَّمْتَ فِي صَبْرِهِ أَنَّهُ مُفْصِحٌ عَنْ
عَزِيمَةٍ مِنْ ذَاقَ ذُلَّ الْعَذَابِ
وَهَاكُم صِحَابِي رَفَاقَ التَّغْنَى بِشَعْرِ نَظِيمَةٍ
خَيْرُ سَبِيلٍ لِحُسْنِ الْمَأْبِ
أَلَا فَاتَّبِعُوا فِي مَرَاقِي الْفُنُونِ وَصِدْقِ الرُّؤْيِ !
أَلَا فَاثْبُدُوا الْحَقَّ خَيْرَ الْمَثَابِ !
وَهَلْ بَيْنَنَا مَنْ يُخَاسِمُهُ الشُّكُّ فِي أَنَا قَدْ
عَرَكْنَا الزَّمَانَ وَدُسْنَا الصُّعَابَ ؟
نَزَلْنَا بِبَحْرِ غَرِيبٍ عَلَيْنَا فَغَرَّبْنَا فِي
صِرَاعِ التَّحْدِي بِخَوْضِ الْعُبَابِ

وما أنقذَ اليومَ أيُّوبَ غيرُ التفافِ المُحِبِّينَ
من حَوْلِهِ وثَبَاتِ الصَّحَابِ
وما كانَ نِضْوُ العَيَاءِ يُووبُ إذا لم يكنْ في
غِنَاءِ نَظِيمَةٍ سِرُّ الإِيَابِ

(٦٢)

وهَلَّلَ من كانَ حَوْلِي لِقَوْلِي وأُهرَعَ قَوْمُ
إِلَيْهِ كَأَنَّ الذِي شَاهَدُوهُ سَرَابُ
تَحَسُّسُهُ البَعْضُ وهو يَكْذِبُ عَيْنِيهِ أَوْ ظَنُّ
أَن المَسَاءَ أَتَى بالضَّبَابِ
وكَيْفَ يَعودُ إلَيْنَا طَرِيحُ الفِرَاشِ بِجِسْمِ
صَاحِبِهِ وَبَعْدَ فَوَاتِ الشَّبَابِ
تَسَاءَلَ من كانَ حَوْلِي وكَيْفَ تَسَنَّى لَهُ أَن
يَقُومَ فَيَهْزِمَ طَوْلَ اغْتِرَابِ

وَمَنْ عَجَبٍ أَنْ صَاحِبِنَا كَانَ جَمَّ الثُّبَاتِ
فَبَدَّدَ فِي النَّفْسِ كُلِّ ارْتِيَابٍ
يَسِيرُ رَزِينًا وَلَا يَرْتَضِيَّ الاسْتِنَادَ إِلَى
أَحَدٍ بَعْدَ هَذَا الْغِيَابِ
وَقَالَتْ نَظِيمَةٌ يَا صَاحِبُ لَا تَعْجَبُوا مِنْ شِفَاءِ
يُبَشِّرُ بِالسَّعْدِ مِنْ كُلِّ بَابٍ
فَبِالْخِصْبِ سَوْفَ تَمُوجُ الْحُقُولُ وَبِالْعُشْبِ كُلُّ
الْمَرَاعِي وَبِالْمَاءِ يَأْتِي السَّحَابُ

(٦٣)

وخاصم أعيننا النوم حتى الصُّباح
ونحن نهني أنفسنا بالشِّفاء !
فقد عاد للصَّامد الصَّابر المطمئن
صِبَاهٌ وَلَمْ تَبْقَ إِلَّا وَعُودُ الثُّرَاءِ

وكان الصباحُ جميلَ المُحيا وَضِيئاً
يفيضُ بِبِشْرِ عَمِيمِ السَّنا والسَّناء
وأشْرَقَتِ الشَّمْسُ مِثْلَ الحَقِيقَةِ تَعْلُو
كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ عاصِفٌ غاطِسٌ بالمِساءِ
وَنِمْنًا وفِي الجَفْنِ حُلْمُ النِّعَمِ المُرْجى
وفِي النَفْسِ أَصْداءُ وَعْدِ بِصَدْقِ الرِّجاءِ
ولكنَّ كَرَّ الشَّهْوِ أَتى بالذِّى
قَهَرَ الحُلْمَ بل فَتَّ فِى عَضْدِ الأَوْفِياءِ
فَأَقْعَدَنَا الجَدْبُ واشْتَطَّ فِينا الهُزالُ
وشلَّ اللِّسانَ وكادتُ تَجِفُّ الدِّماءُ
وها أَنذا جِئْتُ أَطْلُبُ قَرُضًا لِنَفْسِى
لأُبْعِدَ عَن خَاطِرِى اليَوْمَ رُعبَ الفَناءِ !

وعادَ الصديقُ إلى الصَّمتِ في حَيْرَةٍ مِثْلَ ضالٍّ
يَهيمُ على وَجْهِهِ شَارِدُ اللَّبِّ في كُلِّ وادٍ
ولم أَكْ أَعزُّوَ اِكتئابَ صديقِي وحُزنَ الفؤادِ
إلى ما يُعانيهِ من فاقَةٍ أو شَتَاتِ المِهَادِ
وقلتُ لَعَلَّ الفَتَى قد تَكْتُمُ سِرًّا مُهِمًّا
فلم يَجُنْ إلا التَّأْسَى وحيِداً وطولَ السَّهادِ
فهل قَطَعَ العُمُرَ يَنْشُدُ حُلماً بَعِيدَ المَنالِ
ويُخْفِي حَقِيقَتَهُ دائِماً عن عُيُونِ العِبَادِ ؟
وهلْ كانَ يَحُلُمُ أنْ يَصْبِحَ الشَّاعِرَ العَبْقَرِيَّ
فخابَ وأَصْبَحَ يَكسُو الحَيَاةَ بِلَوْنِ السَّوَادِ ؟
وهلْ كانَ يَهوى نَظِيمَةَ سِرًّا ويَكْتُمُ ما
يَعَصِرُ النَّفْسَ عَصراً وَيَحْرِمُ جَفَنِيهِ نُعْمَى الرِّقَادِ ؟

وَأَحْسَسْتُ أَنِّي أَنَا مِثْلُهُ حَائِرٌ قَدْ تَقَطَّعَ
مَا كَانَ يَرْبِطُنِي بِالْحَيَاةِ لِطُولِ ابْتِعَادِي
وَقَرَّرْتُ سَاعَتَهَا أَنْ أَعُودَ إِلَى مَوْطِنِي فِي
ثَبَاتِ الَّذِي مَلَ طُولَ التَّنَقُّلِ بَيْنَ الْبِلَادِ !

(٦٥)

وبعد استضافةٍ خَلِي زَمَانًا قَضَيْنَاهُ فِيمَا
بَدَأَ كَالْوَدَاعِ لَوْهَمٍ مُحَالٍ
رَكِبْنَا مَعًا عَائِدِينَ إِلَى مَوْطِنِي وَفُؤَادِي
يَمُوجُ بِذِكْرِ قَدِيمِ اللَّيَالِي
وَأَحْسَسْتُ عُمْرِي يَغِيضُ وَشِعْرِي يَفِيضُ لِيَطْرَحَ
فِي مَسْمَعِ الصَّبْحِ مَرَّ السُّؤَالِ:
تُرَى هَلْ تَغَيَّرَتِ الْآنَ - بَعْدَ السَّنِينَ الطُّوَالِ -
مَرَاتِعُ لَهْوِي بِظَهْرِ الرِّمَالِ ؟

فَكَمْ مِنْ سُوءِ عَاتٍ سَعَدَ قَضِيَّتُ وَحِيدًا أُغْنَى
بِكُتُبَانِهَا أَوْ بِبَعْضِ التَّلَالِ !
وَكُنْتُ طَوَالَ الطَّرِيقِ أَرَاهَا بِعَيْنٍ خَيَالِي
حَمَارَةً قَیْظٍ وَبَرْدَ ظِلَالِ
وَأُذْنِي تَرَى فِي نُغُومِ الحُرُوفِ فُتُونًا كَوَقْعِ
بَهَاءِ المُحْيَا وَسِحْرِ الجَمَالِ
وَهَا قَدْ تَغَيَّرَ حُلْمُ الزَّمَانِ غَدَاةً اغْتِرَابِي
وَمَا ذُقْتُهُ مِنْ تَبَدُّلِ حَالِي

(٦٦)

وَقُلْتُ لِنَفْسِي عَشِيَّةً أَنْ لَاحَ رَمْلُ رَشِيدِ
وَمَاءُ القَنَاةِ وَرَوْضُ أَرِيضُ :
هَذَاكَ يَفْتَرُّ تَغَرُّ الزَّمَانِ وَيَرْجِعُ بِالْعُمُرِ
سَاقِي المَشَاعِرِ مُوْحِي القَرِيضِ

هنا يتغنّى هَزَارُ الطبيعة فوق الغُصونِ
فَيُذَكِّي الشَّبَابَ وَيَشْفِي المَرِيضَ !
وقلتُ لِخَلِيٍّ فَذَلِكَ مَا جَاءَ بِي مِنْ شَتَاتٍ
إِلَى الحُبِّ فِي كُلِّ قَلْبٍ يَفِيضُ
ولكنَّ خَلِيٍّ بَدَأَ شَارِدَ اللبِّ ثم انثنى
يُغَنِّي نَشِيداً بِصَوْتٍ خَفِيفُ
وَفِي الوَجْهِ فَرَحَةٌ مِنْ لَمَحِ السَّعْدِ يَأْتِي حَثِيثاً
وَفِي العَيْنِ بَرَقٌ وَلَمَعٌ وَمِيزُ
عَجِبْتُ فَقَدْ كَانَ خَلِيٍّ حَزِيناً كَثِيباً وَأُلْقَى
بِهِ الحُزْنُ فِي دَرَكَاتِ الحُضِيِّضِ !
فَكَيْفَ بِهَذَا الحَزِينِ بِشُوشَا سَعِيداً وَكَيْفَ
تَحَوَّلَ فِي لَحْظَةٍ لِلنَّقِيسِ ؟

وَسَرُّعَانَ مَا جَاءَ تَفْسِيرُ مَا كَانَ لُغْزًا غَرِيبًا
 فَأَذْهَبَ عَنِّي دَوَاعِي الْعَجَبِ
 إِذِ التَّفَتَ الْخَلُّ لِلرَّوْضِ مِنْ حَوْلِنَا فِي انْتِشَاءٍ
 وَنَحْنُ جَوَارَ الرِّيَاضِ نَخْبُ
 وَقَالَ فَهَذِي الرِّيَاضُ لِأَيُّوبَ قَدْ أَثْمَرَتْ
 وَاكْتَسَتْ سُنْبُلًا بِنَوَاصِي الذَّهَبِ
 وَتِلْكَ الْغُصُونُ تَتِيهِ بِزَهْرٍ جَمِيلٍ ، وَلَوْنُ
 الْوُرُودِ يَضْجُ بِوَقْدِ اللَّهَبِ
 وَتِلْكَ الْمِيَاهُ تَسِيلُ بِلَحْنِ الْخَرِيزِ الْجَمِيلِ
 لِنَنْسَى بِهِ الْآنَ مَا قَدْ نَضَبُ
 وَقَالَ لَعَلَّ إِلَهَ اسْتَجَابَ لِأَيُّوبَ حَقًّا -
 وَهَا نَحْنُ مِنْ دَارِهِ نَقْتَرِبُ

وَأَشْرَقَ فِي الْخَلِّ بَعْضُ الصَّفَاءِ الْقَدِيمِ فَأَمْسَى يُغْنِي
لَحُونَ غَرَامٍ تُشْيِعُ الطَّرْبُ
وَزَالَتْ مَشَاقُّ الرِّحِيلِ عَنِ النَّفْسِ بَلْ زَالَ عَنَّا
جَمِيعُ الَّذِي هَدَّانَا مِنْ نَصَبٍ !

(٦٨)

وَعِنْدَ الْوُصُولِ سَمِعْتُ الَّذِي خِلْتُهُ لَحْنُ حُبٍّ
تَكَادُ عَذُوبَتُهُ أَنْ تَبْوَحَ
إِذَا اسْتَقْبَلْتُنَا لَدَى الْبَابِ حُورِيَّةٌ فِي صِبَاهَا
بَقْدٌ رَشِيقٍ وَوَجْهٍ صَبُوحُ
وَخِلْتُ كَأَنَّ بِصَفْوِ الْمُحْيَا عَبِيرًا خَفِيًّا
بِهِ كُلُّ عِطْرِ الصَّبَاحِ يَفُوحُ
بِهِ مِثْلُ قَطْرِ النَّدى لَوْلَوْ سَاطِعٌ فَوْقَ زَهْرٍ
بِرُوضٍ تَتَأَثَّرُ فَوْقَ السُّفُوحِ

وفى طرفِها حورٌ ساحرُ النُّورِ كالْفجرِ يزهُو
وفى كُلِّ آنٍ وصُقعٍ يلوح
وأحسستُ أنى أنا الكهلُ أرنو كليلَ اللسانِ
مخافةً أن يتبدى جنوحُ
وقلتُ فيا ليتنى عدتُ شاباً شريدَ الزَّمانِ
لأطلقَ خيلَ خيالي الجموحُ
وقلتُ فليت العليلَ يرى فِطْرَةَ الله فيها
فيشفي الهوى غيره من جروح !

(٦٩)

وغبت عن الركب أنا كائنُ أناجى الهواء
وأقَّتاتُ فى خاطِرى بالخواء !
وغام الوجود بعين الذهول إزاء الجمال
كأنَّ الوجودَ قرينُ الفضاء

عَجِبْتُ وَقُلْتُ وَكَيْفَ وَقَدْ جُرْتُ طَوْرَ الشَّبَابِ
وَلَمْ يَبْقَ فِي الْقَلْبِ إِلَّا الْهَبَاءُ
وَأَيْنَ التَّعَقُّلِ أَيْنَ التَّرَوُّى بِلَحْظَةِ نُضْجِ
وَحِكْمَةِ رُوحِ ذَوْتٍ مِنْ جَفَاءٍ
تُرَانِي أُصِيبْتُ بِوَهْمٍ جَدِيدٍ يَشُلُّ الْحَوَاسَّ
كَمَنْ صَعِقَتْهُ بَرُوقُ السَّمَاءِ ؟
تَمَالَكْتُ نَفْسِي قَلِيلًا وَعُدْتُ إِلَيْهَا ذَلِيلًا
أَسْأَلُهَا سِرَّ هَذَا الْعَنَاءِ
وَلَمْ أَدْرِ هَلْ صَاحِبِي الْآنَ يَدْرِى بِمَا كَانَ مِنِّى
تُرَاهُ تَبَيَّنَ سَهْمُ الْقَضَاءِ ؟
وَأَيُّقَظْنِى مِنْ دَوَارِ التَّسَاوُلِ (قَيْدَ الذُّهُولِ
بِسِحْرِ الْجَمَالِ) عَجِيبُ غِنَاءِ !

وما كان إلا غناء الصديق جميلاً حزيناً
كَمَنْ يَتَشَكَّى عَذَابَ الْغَرَامِ
فهل كان ذلك سرّاً شقاءِ صديقي ؟ عَجِبْتُ
ورمْتُ سماعَ حديثِ الهَيَامِ
وبعد السلام وتذكّارِ جَوْرِ الزَّمانِ وكَيْفَ
يعودُ ابتساماً لبَعْضِ الْأَنامِ
لَقِيتُ نَظِيمَةً فِي بَهْجَةِ النَّصْرِ تَزْهُو بِبِشْرِ
وَتَنْشُرُ فِي النَّاسِ رُوحَ الْوِثَامِ
وَأُفَيْتُ أَيُوبَ كَالْمَلِكِ الْحَقِّ يَخْتَالُ فَرَحاً
بِعَوْدِ الصِّفَا وَانْقِشَاعِ الْغَمَامِ
وعِنْدَ الْمَسَاءِ خَلَوْتُ بِخِدْنِي لِأَعْرِفَ مِنْهُ
حَقِيقَةَ مَا هَدَّهُ مِنْ أَوَامِ

وَمَا لَبِثَ الْخَلُّ أَنْ قَصَّ قِصَّتَهُ فَأَفَاضَ
بِقَوْلِ صَرِيحٍ أَمَاطَ اللَّثَامُ
وَهَاكُمُ صِحَابِي حَدِيثَ الْخَلِيلِ وَمَا قَالَهُ لِي
بِصِدْقٍ يَزِيدُ اشْتِعَالَ الضَّرَامِ :

(٧١)

وَقَالَ صَدِيقِي : لَقَدْ كَانَتْ الْبَنْتُ بَنْتَ جَمِيلَةً
(مِنْ هَجَرَتْ حِينَ مَالِ الزَّمَانِ)
وَكُنْتُ أَرَى فِي طُفُولَتِهَا بِسْمَاتِ الرَّبِيعِ
وَنُورَ الزُّهُورِ وَدِفْءَ الْحَنَانِ
وَلَمْ أَكُ غَيْرَ صَبِيٍّ تَسَاقَى رَحِيقَ الْجَمَالِ
فَعَذَّبَهُ الْحُبُّ قَبْلَ الْأَوَانِ !
وَعِنْدَ رَحِيلِ جَمِيلَةٍ وَابْنَتِهَا أَظْلَمَتْ فِي
عُيُونِي الْحَيَاةُ وَضَاقَ الْمَكَانُ

وقلتُ : لقد جَارَ دَهْرِي فـشـارـكتُ أَيُوبَ فِي
خَوْضِ مَحْنَتِهِ (أَيُّ حَرْبٍ عَوَانُ !)
سَأَسْأَلُو هَوَاهَا وَأُنْسَى لَوَاذِعَ قَلْبِي الصَّغِيرِ
وَأُهْرَعُ لِلشَّعْرِ فِي كُلِّ أَنْ
وَوَطَّنتُ نَفْسِي عَلَى الْهَجْرِ وَاشْتَغَلَ الْقَلْبُ عَنْهَا
بِفَنِّ الْغِنَاءِ وَسِحْرِ الْبَيَانِ
وَكُنْتُ أَرَى فِي غِنَاءِ نَظِيمَةٍ تَسْرِيَةً عَنْ
عَذَابٍ يَمِثُّ لَذْعَ الْهَوَانِ !

(٧٢)

ولكنَّهَا عَادَتْ الْيَوْمَ ! قَالَ صَدِيقِي فَكَيْفَ
أَصَالِحُ أَحْلَامِي الضَّائِعَاتِ ؟
تُرَانِي سَأُنْسَى سَنِينَ الْبِعَادِ وَأُنْسَى الْعَذَابَ
وَأَفْتَحُ لِلصَّفْحِ بَابَ الْحَيَاةِ ؟

تُرَانِي سَأَنْسِيَ الَّذِي فَعَلْتَ أُمُّهَا بِأَبِيهَا
وَأَقْبِلْ بَعَثًا بِبَرْدِ الْمَمَاتِ ؟
تُرَانِي سَأَغْفِرُ صُحْبَتَهَا لَجَمِيلَةٍ يَوْمَ
رَحِيلِ مَرِيرِ غَدَاةِ الشَّتَاتِ ؟
وَكَيْفَ سَأَنْسِيَ مُغَادَرَةَ الرِّكْبِ لِلْبَيْتِ صُبْحًا
وَفَوْقَ الْوُجُوهِ ابْتِسَامُ النِّجَاةِ ؟
لَقَدْ سَلَبْتُ أُمُّهَا ثِقَتِي فِي النِّسَاءِ وَلَوْلَا
نَظِيمَةٌ مَا عَدْتُ أَعْرِفُ ذَاتِي !
فَهَلْ بَاتَ حُسْنُ الْوُجُوهِ قِنَاعًا ؟ وَهَلْ بَاتَ يَزْهَوُ
بَطْهَرٍ عَلَى أَوْجِهِ الْخَائِنَاتِ ؟
وَهَلْ حُسْنُهَا فَوْقَ حُسْنِ الْوَفَاءِ وَأَحْلَى مِنَ الصَّبْرِ
أَوْ مِنْ صَدَى الشَّعْرِ وَالْأَغْنِيَاتِ ؟

(٧٣)

وقلتُ له يا صديقي حَفِظْتَ حَدِيثَ التُّرَابِ
وما عُدْتَ تَذَكُّرُ نَجْوَى الْأَمَلِ !
لقد كانت البنتُ أَنْيَذِ طِفْلَةً غِرَّةً
بِعَقْلِ بَرِيٍّ وَلَمَّا يَزَلْ !
وَكَلَّ فَتَاةٍ تُحِبُّ أَبَاهَا وَلَكِنَهَا تَتَّبِعُ
الْأُمَّ دَوْمًا كَشَأْنِ الْحَمَلِ !
فكيف تُحَاسِبُهَا اليومَ هذا الحَسَابَ وكيفَ
تَقُولُ لَقَدْ زَلَّ مَنْ لَمْ يَزَلْ ؟
لقد عادَ أَيُّوبُ لِلْعَيْشِ بِالصَّبْرِ بَلْ بِنَظِيمَةٍ
فِي شَدْوِهَا عَنْ رِيَا حِ الْأَجَلِ !
وَأَحْرَى بِكَ الْيَوْمَ أَنْ تَسْتَعِينَ بِمَا قُلْتَهُ عَنْ
تَخَطَّى الصَّعَابِ وَصَبْرِ الْبَطَلِ !

فَإِنْ شِئْتَ بَعَثًا جَدِيدًا فَلَا بُدَّ مِنْ طَيِّ هَذِي
الصَّحِيفَةِ وَاسْلُكْ طَرِيقَ الْعَمَلِ !
وَأَوْمَأْ خَلِيَّ كَمَنْ رَاقَهُ مَا أَقُولُ وَفِي الْعَيْنِ
جُرحُ هَوًى بَارِدٌ مُنْذَمِلٌ !

(٧٤)

وَأَحْبَبْتُ أَلَّا أَفَارِقَهُ دُونَ وَعْدٍ بِنَفْسِي
جَمِيلَةٍ مِنْ سَانِحَاتِ الْخَيَالِ
وَلَكِنْ صَمْتًُا طَوِيلًا تَحَدَّثُ عَنْ عُمُقِ جُرْحِ
تَكْتُمُهُ صَامِدًا كَالْجِبَالِ
وَيَكْرَهُ أَنْ يُشْرِكَ النَّاسَ فِيهِ لِئَلَّا يَظُنُّوا
بِهِ الْمَسَّ أَوْ هَمَسَاتِ الْخَبَالِ
وَطَافَتْ بِذِهْنِي صُورَةٌ مِنْ هَامَ حُبَا بَجَارِيَةٍ
وَصَلَّهَا مِنْ قَبِيلِ الْمُحَالِ

وقلتُ لعلَّ الحبيبَ نظيمةً ! لِمَ لا ؟ فقد
يَعشَقُ القلبُ رَغمَ ذهابِ الجمالِ
وما كِدْتُ أَهْمِسُ باسمِ نظيمةٍ حتَّى انتَفَضُ !
كمن عَذَّبَتْهُ ذُنُوبٌ ثَقَالُ
وأدركتُ أَنِّي أَصَبْتُ بِحَدْسِي فذلكَ حُبُّ
عميقٌ بلا أملٍ في الوصالِ
وأشفقتُ مما اعْتَرَى صاحبي مثلَ رعدةٍ رُعبِ
وأَحْجَمْتُ عن طَرَحِ أَيِّ سؤَالِ !

(٧٥)

سَهَرْنَا وبعد انْفِضَاضِ الكلامِ افترقنا وفي النفسِ
آثارَ لَذَعِ انْفِضَاخِ صُراحِ !
ولم أَلْقَ في الجَفْنِ أَيَّ بَصِيصٍ من النُّومِ يُسْكِنُ
ثائرتي وانكسارَ الجَنَاحِ

وعند انبلاج الضياء هُرِعتُ إلى منزلِ الخِلِّ
أَنْشُدُ تَضْمِيدَ كُلِّ الْجَرَّاحِ
وفى الجَوِّ من بَسَمَاتِ الربيعِ شَذَاً من زُهورِ
رَشِيدٍ بِكُلِّ الرُّبَا والبَطَّاحِ
عَبِيرٌ مِنَ النُّورِ فِي أَرْضِ أَيُوبَ شَرْقًا وَغَرْبًا
يُكَلِّلُ هَامَتَهَا كَالْوَشَّاحِ
وفى النَّفْسِ آمَالٌ بَعَثَ جَدِيدِ يَجُوبُ الرِّيَاضَ
وَأَحْلَامُهَا مَطْلَقَاتُ السَّرَّاحِ
ولكننى لم أَجِدْ صَاحِبِي بَلْ سَمِعْتُ بِأَنَّ الْفَتَى
غَادَرَ الدَّارَ عِنْدَ الصُّبَّاحِ
سَأَلْتُ وَلَكِنِّى لَمْ أَجِدْ لِلصَّدِيقِ سَبِيلًا
كَمَنْ ذَابَ فِي دَفَقَاتِ الرِّيحِ

الخاتمة

وها أنذا يا رفاق المساءِ
أقصُّ عليكم حديثَ الزَّمانِ
وكم كنتُ أرجو ختاماً سعيداً
لصبرٍ طويلٍ غِذاهُ الحَنانُ
وحُبُّ عميقِ الجذورِ ترعرعُ
صِدْقاً فأنطقَ سِحْرَ اللِّسانِ
ولكنَّ هذا الصديقَ اختفى
كمن خسرَ الشَّوْطَ عند الرِّهانِ
لقد هَامَ حُباً بِصوتِ رَخمٍ
وألحانٍ من عَشيقِ المشرقانِ
فشِعْرُ نَظِيمَةٍ يحيا لَدِينَا

تَغْنَى بِهِ كُلُّ قَاصِرٍ وَدَانُ
أَحَالِ الْقِفَارِ رِيَاضًا تَرْفُ
وَجَاءَ إِلَى أَرْضِنَا بِالْجِنَانِ
وَمَا كَانَ إِلَّا دَعَاءَ لِقَلْبٍ
بِإِيمَانِهِ قَدْ تَخَطَّى الْمَكَانَ !

الفهرس

٥	تصدير.....
٩	الاستهلال.....
١٩	النشيد الأول.....
٣١	النشيد الثاني.....
٥٣	النشيد الثالث.....
٥٩	حديث الأمل.....
٧٣	حديث التراب.....
٨٥	النشيد الرابع.....
٩٥	حديث الرياح.....
١٣١	الخاتمة.....

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://twitter.com/SourAlAzbakya>

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٤/١٠٤٢٠

I.S.B.N. 977 - 01 - 9073 - x